# 4 - ما ذكره المؤرخون العرب عن قدوم الجمالين البدو الكبار أي البتر والزناتة

**زناتة والبربر الآخرون**

**البتر والبرانس.**

لم يشر أي كتاب معاصر لهذا التحول العظيم الذي حدث في المغرب. وإن ذكر القدماء لماما، بعض الشيء عنه. على أن جميع الباحثين متفقون على تأخر ظهور الجمال في هذه البلاد، وهي ظاهرة أساسية تنبع منها وقائع كثيرة. وكان من الممكن أن نعود إلى المؤلفات العربية بهذا الصدد لكنها تحتاج للتأويل وهذا ما لم يقدم عليه احد. وهكذا نرى أننا وحدنا على هذه الدرب الخطرة. وخليق بنا أن نلفت الانتباه لذاك التشابه بين النصوص القديمة الذي أغفله الباحثون.

حين وضع العرب أيديهم على بلاد المغرب بدأوا ينظرون إليه نظرة تختلف كل الاختلاف عن نظرة الغربيين.

واختفت تسميته الأولى (أي افريقية) وظهر اسم المغرب أي المغرب بالنسبة للشرقيين. واختفى أيضا اسم الليبيين وظهر اسم البربر لأول مرة بمعناه نعرفه اليوم. ولعل العرب استعاروا التسمية اللاتينية كما يرى غيزل. ورأيه في هذا المجال ليس نهائيا. غير أنه من الواضح أن العرب قد أطلقوا على الليبيين اسم البربر في فجر الفتح الإسلامي. لكنها محض تسمية ليس لها أهمية كبرى، وإنما ظهرت مع الفتح العربي أشكال جديدة لم تكن معروفة من قبل.

يقسم اللاتين البلاد الإفريقية لمقاطعات وأراض. فالمقاطعة الإفريقية بحد ذاتها أطلقت على الأرض قامت عليها قرطاجة. أما نوميديا فتضم الأوراس والوديان العالية في شماليه. وموريتانيا هي منطقة القبائل ومنطقة وهران.

واختفت معظم هذه الأسماك بعد قدوم العرب وزوال الرومان، لان العرب لا يعيرون اهتماما للتقاسيم الجغرافية بقدر ما يهتمون بتعدد القبائل.

غير أن المؤرخون العرب قد تركوا لنا إرثا ضخما ن أسماء القبائل البربرية التي عاشت

في بلاد المغرب. وإذا كان اللاتين قد أوردوا بعض الأسماء فجميع ما جاؤوا به موجود في المراجع العربية.

ومهما يكن من أمر الفوضى المعروفة لدى الكتاب العرب الأقدمين فان القبائل التي ذكروها تساعدنا على إيجاد رسم بيان للقبائل في جميع بلدان المغرب.

وغني عن البيان أن ابن خلدون وحده بين المؤرخين العرب هو الذي وضع تاريخا للبربر. وقد كتب عنهم في القرن الرابع عشر. وأسهب في الكلام على القبائل التي عاصرته وراقبها عن كثب.

على أن حديثه عن القبائل الأخرى التي تهمنا على جانب كبير من الأهمية لاسيما ما جاء به عن زناتة القبيلة البربرية الكبرى.

## قبائل زناتة بشكل عام

في ترجمة سلان ورد عن ابن خلدون انه قسم كتابه "تاريخ البربر" إلى قسمين: واحد يتعلق بالبربر الأصليين وآخر يتحدث فيه عن زناتة، وكأن هذه القبيلة ليست من البربر.

وينبغي ألا ننسى الفترة الزمنية التي كتب فيها ابن خلدون. ففي نهاية القرن الرابع عشر كانت أهم الأسر الحاكمة قذفي المغرب من الزناتيين كالمرينيين في فاس وبني عبد الواحد في تلمسان. وهما الأسرتان اللتان عمل ابن خلدون في خدمتهما في مستهل حياته. ولم يكن الزناتيون، بعد أن وصلوا إلى درجة كبرى من الأهمية، راغبين في التشبه بسائر البربر أبناء بجدتهم.

غير أن ابن خلدون ليس متشبثا كما رأينا بتأييدهم وقد فر منهم ليعمل في خدمة الحفصيين بتونس حيث وضع كتابه عنهم.

ويقول الزناتيين كانوا أصحاب لغة مميزة تختلف عن سائر لغات البربر بمعنى أن اللهجة الزناتية كانت مميزة عن اللهجات الأخرى. ولدينا دراسة اللهجات البربرية بإشراف رينيه باسيه لكنها ليست وافية مع الأسف بحيث نرى لزاما علينا العودة إلى العامل الجغرافي بغية الوصول إلى حل حول هذه الناحية. لنستعرض على الخريطة المناطق الزناتية كما ذكرها ابن خلدون:

يقول المؤرخ العربي أن قبيلة زناتة كانت تقيم في بلدان النخيل ابتداء من غدامس وحتى السوس الأقصى. ويمكن القول أن الزناتيين هم سكان القرى الواقعة في المناطق المشجرة من الصحراء.





واختفى الزناتيون اليوم كمجموعة قبيلة كبرى، لأنهم لم يستطيعوا الاستمرار بعد انهيار عظمتهم مع القاعدة الثابتة في بلاد المغرب. لكنهم لم يزولوا تماما من الوجود وقد عثر على بعض أثارهم في المناطق المشجرة من الصحراء.

إذ ينتمي القصوريون في غزارة للبربر وهم يتحدثون البربرية ويدعون أنفسهم بالزناتيين.

ولا تزال اللهجات البربرية في الزاب وأورغلا تحمل اسم الزناتية. وتاريخ هاتين المنطقتين معروف حتى المعرفة، لأنهما كانتا الملجأ الأخير لما بقي من مملكة الزناتيين الزاهرة في تاهرت والتي سنتحدث عنها في ما بعد. ومن المؤكد أن الزناتيين قد أقاموا شمالي الصحراء الجزائرية في الأراضي الغنية بالنخيل.

ويتابع ابن خلدون كلامه قائلا: في منطقة التل يشاهد الزناتيون في ضواحي طرابلس وسط سهول افريقية وفي جبل الأوراس. وهو قول مثبوت بدليل أن البربر لا يزالون حتى الآن يعيشون في جبل نفوسة بالمنطقة الطرابلسية وهم على صلة تاريخية بمملكة الزناتيين في تاهرت. كما أنهم من أهل الزاب يحافظون حتى على رابط القرابة التي تثبتها المذهبية الدينية.

أما السهول الإفريقية فيعني بها جنوبي تونس ومنطقة الجريد التي طغى عليها الطابع العربي بعمق. أما جنوبي الجريد فيقع جبل مطماطة ويعتبر ابن خلدون أن قبيلة المطماطة من الزناتة.

ويشير إلى أن البربر المقيمين شرقي الأوراس يتكلمون لغة تختلف عن لغة المقيمين غربه وهؤلاء من "ولد ضنى" - ويرى أن جنة هو الاسم الأساسي للزاناتة.

وكان الأوراس الشرقي إبان الفتح العربي موطن قبيلة جراوة التي كانت الكاهنة ملكتها. ويعتبر ابن خلدون أن الجراوة من الزناتيين. وفي شمالي الأوراس بمحاذاة سهول قسنطينية العالية ومنطقة التل، ويقع وادي الزناتة الذي لا يزال حتى اليوم يحمل اسم القبيلة الكبرى. وليس الأوراس كله موطن زناتة على رأي مسكوراي إذ يستثني وسط الجبل ومنطقة الوديان المقفلة أي وادي العبدي ووادي الأبيض.

ويضيف ابن خلدون أن معظم الزناتيين يقيمون في أواسط المغرب وكانوا من الكثرة بحيث سميث المنطقة باسمهم.

وفي مكان آخر يحدد صاحبنا ما يقصده بأواسط المغرب ويعني ذلك القسم من

الجزائر الممتد من الملوية غربا حتى منطقة القبائل والأوراس شرقا أي مرتفعات الجزائر ووهران ووادي شلف.

هنالك كان مهد الزناتيين. واليوم أصبحت هذه المناطق عربية غير أنها لا تزال تحمل آثار القبيلة البربرية الشهيرة.

وجبل أمور الذي نعرفه اليوم ومنه يبدأ وادي شلف كان يحمل في السابق اسم جبل راشد، ويعتبر ابن خلدون بني راشد من الزناتيين. ولهجة هؤلاء متشابهة مهما ابتعدت مناطقهم بعضها عن بعض. واليك على كل حال ما جاء به م.ديستان عن اللهجة البربرية التي يتكلمونها في بني سنوس بجوار تلمسان:

لقد فهموا بسهولة النصوص التي عرضها رينيه باسيه عن لهجات بني مناصر، أما لهجة القبائل فلم يفهموها.

وعلينا أن نشير هنا إلى أن جميع القبائل التي استوطنت في أواسط المغرب بما فيها مغراوة وبني يفرن تنتمي للزناتية، واهم عاصمتين لمملكة الزناتيين هما تاهرت وتلمسان في قلب البلاد.

ثم توسع الزناتيون نحو الغرب وظهر بعض منهم في المغرب الأقصى أي في مراكش كما قال ابن خلدون.

فموقعهم الجغرافي واضح إذن لأنهم حلوا في الصحراء الكبرى وفي جنوبي تونس وبجوار الأوراس وفي الهضاب العليا والسهول القريبة من الساحل ابتداء من نهر شلف. وموقعهم الجغرافي هذا دليل كاف على كونهم من البدو. وهذا ما يؤكده ابن خلدون حين يقول: نلاحظ عند هذه القبيلة كثيرا من العادات العربية، حيث يعيش أبناؤها تحت الخيام ويعنون بتربية الماشية ويحسنون ركوب الخيل وينتقلون من مكان لآخر، فيقضون الصيف في التل والشتاء في الصحراء ويطردون بالقوة أبناء البلاد المتحضرة ويرفضون الخضوع لحكومة منظمة، وهم بذلك يختلفون عن البربر سكان الجبال المستقرين.

ولم يعثر في الآثار على منقوشات للزناتيين. غير أن غيزل تحدث عن احد نقوشهم في منطقة شلف وذكر الزناتة وكأنها إشارة لشخص وليس لقبيلة. ولم يصلنا من الكتاب القدماء بمن فيهم البيزنطيون أي أخبار عنهم. فمن العجيب حقا أن يكون التاريخ قد اغفل ذكر قبيلة كبرى كهذه. بيد انه من المرجح أنها لم تكن جميعها بالقبيلة الطارئة وأنها امتزجت بأهل البلاد لتكون بوتقة جديدة. وهو رأي يتفق وما ورد معنا في الفصل السابق.





والزناتيون هم بالفعل الجمالون الكبار الذين عرفهم المغرب. وهذا ما يجعلهم متميزين عن سائر البربر، حتى أنهم كانوا يقيمون في القرن الرابع عشر نوعا من الوطن.

سبق لنا الصحراء كانوا في عهد الرومان من السود فقط. ولم تكن أشجار النخيل معروفة في ذلك الوقت. أما نخيل وادي غير، جنوبي بسكره، والذي يشكل موردا اقتصاديا هاما في أيامنا هذه فكان خارج الحدود الجبلية. ولم يشر إليه احد من المؤرخين القدامى وكذلك لم يعثر على شيء منه في الآثار الرومانية.

أما نخيل منطقة غرارة الذي لا يزال الزناتيون يعنون به حتى الآن فقد أسهب المؤرخون العرب في الحديث عنه. زرعت أشجار النخيل لأول مرة في غرارة، على اثر هجرية الناس القدامى من الشرق في "عام الفيل" وهي سنة مشهورة قبيلة الإسلام.

ولا حاجة لي للعودة إلى ما ذكرته في لسابق من أن الصحراء الكبرى بسكانها البيض الرحل وبواحاتها ونخيلها وأساليب الري المتطورة فيها، لم تتكون معالمها الحضارية تدريجيا في العصر الوسيط وحتى في العصور الحديثة إلا مع ظهور الجمل الذي ساعد على ارتياد الصحراء واستغلالها اقتصاديا.

وقد حصل هذا التطور في قلب الصحراء مع قدوم الزناتيين إليها. ولابد لنا هنا من ذكر القرابة بين الزناتية واليهودية في الأصل. فالكاهنة أول أميرة على الزناتيين كانت تحمل اسما يهوديا: فكاهنة تذكر بكوهين.

ولكن كلمة كاهنة عربية مثلما هي عبرية. ويقول ابن خلدون: من بين البربر اليهود يمكننا أن نذكر جراوة القبيلة التي كانت تقطن الأوراس واليها تنتسب الكاهنة.

ويضيف أن قبيلة نفوسه وبربر افريقية يهوى أيضا. وبنو نفوسه معروفون جيدا ويعتبرون من الزناتيين أو المنضمين إليهم.

واليك دليل آخر في هذا المجال: ففي غرارة وأقصى شمالي توات بين تمنتيت وسبع غرارة في تلك المنطقة التي حافظت على لغة زناتة وجنسها حتى أيامنا هذه كانت تقوم دولة يهودية مستقلة استمرت حتى نهاية القرن الخامس عشر. ولدينا تفاصيل وافية عن إبادة هذه القبيلة عام 1491 حين قضى عليها المسلمون بعد هزيمتهم في اسبانية.

وبنو نفوسه قبيلة طرابلسية. ومن المعروف أن الجمال قد انتشرت في المغرب انطلاقا من طرابلس. ومن المعروف أيضا أن ثورة يهودية قامت في عصر الإمبراطور تراجان انطلقت من برقة. وقد مدد رينان كثيرا على هذه الثورة "قام هؤلاء وعلى رأسهم شخص يدعى

لوقوفا عتبروه ملكا عليهم، بعمليات ذبح واسعة النطاق لليونانيين والرومان، وأكلوا لحمهم وتلذذوا بتلطيخ أيديهم بدمائهم منتزعين جلدهم عن أجسامهم ليجعلوا منه ثيابا يرتدونها ! ويقدر عدد سكان برقة الذين قضوا على هذا النحو بحوالي مئتي وعشرين ألفا. أي أن جميع السكان قد ذبحوا تقريبا وتحولت البلاد إلى صحراء قاحلة من جديد.

ولا تدل وقائع كهذه على مدى التعصب الديني اليهودي وحسب، بل على أن هؤلاء كانوا منظمين أحسن تنظيم أيضا. على أن برقة كانت آخر بقعة رومانية يشاهد فيها اليهود ظافرين. فاليهود إذن هم الذين قضوا على حكم الإغريق في برقة في بداية القرن الميلادي الثاني. وعلينا أن نبحث في برقة عن انطلاقة الزناتيين. أنها وقائع لا يسعنا إلا أن نربط بينها.

تقع بلاد زناتة حسب تحديد ابن خلدون بين كتلتين من القبائل البربرية هما سكان منطقة القبائل في الجزائر وقبائل الأطلس المراكشي، بحيث يفصل بينهما حاجز طبيعي كثيف.

واسم زناتة مرتبط ارتباطا وثيقا بالثورة الاجتماعية والسياسية الكبرى التي حصلت في المغرب بعد ظهور الجمل. ذلك لان قبيلة زناتة قد ظهرت في نفس الفترة التي ظهر فيها الجمل وكأن احدهما يحمل الآخر.

يبقى أن نوضح بعض القضايا الأخرى

## البتر والبرنس

على الرغم من أن ابن خلدون وسائر المؤرخين العرب قد ذكروا زناتة منذ بداية الفتح العربي، فيبدو أن هؤلاء لم يكونوا ليمثلوا وحدهم جمالي القرن السابع كما أصبحوا فيما بعد.

ويتحدث ابن خلدون عن أصل البربر فيقول:

"يتفق الخبراء بعلم السلالات على إرجاع البربر لأصلين اثنين: البرنس والمدغيس. وكان مدغيس بالأبتر فأطلق على المتحدرين منه اسم البتر. ويدعى البرانس أولئك الذين يرجعون في أصلهم إلى برنس.

ويعلق البارون دي سلان مترجم ابن خلدون على ذلك فيقوا: البتر بالعربية جمع أبتر. واعتماد اللغة العربية الأصلية في المنطقة الموريتانية في ذلك الحين يدل على أن هذه





اللغة كانت شائعة في الوقت الذي بدأ فيه العلماء البربر يدونون أنسابهم. وتدل بعض الظواهر الأخرى على أن هذه الأنساب قد أعدت باللغة العربية في القرن الرابع الهجري. ونظرية سلان هذه منطقية كل الانطباق على واقعة لا تقبل الجدل: وهي أن المؤرخين الغربيين لم يذكروا شيئا عن إرجاع البربر إلى أصلين وهذا دليل واضح على أن البربر قد جاؤوا بعدهم. ويذكر ابن خلدون بين نسابي البربر ويوسف الوراق الذي نقل عن أيوب بن أبي زيد (صاحب الحمار)، وسابق بن سليمان المطماطي وهاني بن مصدور الكومي وكحلان بن علي لوا وغيرهم. ولا شك أن تمازجا بين السلالات قد حصل بعد الفتح العربي كانت نتيجته ما نعرفه عن نسب البربر.

ويرجع نسب البربر إلى فرعين متباينين إلى أن البعض لا يجد لهما أصلا واحدا. ويقول ابن خلدون إن مدغيس وبرنس يلقبان كلاهما بابن بر ولكن الكثير من النسابين لا يميلون لإرجاعهما لنفس الأب.

فجد البرانس متحدر من مازق ابن كنعان وجد البتر هو بر ابن قيس.

وفي نظرنا أن جميع هذه التسميات جاءت اعتباطا؛ لذلك اغفل المؤرخون الغربيون ذكر هذه السلالات.

ونحن نعلم أن المفهوم البيولوجي للتاريخ عند العرب هو الذي حدا بهم لتقسيم الشعوب على أساس الأنساب. فحين تصور عرب وبربر القرن العاشر أن نسبهم ينقسم إلى فرعين أرادوا بذلك أن يشيروا إلى سلالتين متباينتين من البربر، فما هما هاتان السلالتان؟

## البتر

يعدد ابن خلدون قبائل البتر بشكل مستفيض لا نستطيع أن نمضي وراءه فيه. إذ يبدو لنا أن البتر متحدرون من نفوسه ولواته. أي من القبائل المعروفة بانتمائها لطرابلس.

ويقول ابن خلدون أن بني نفوسة أقاموا في نواحي طرابلس والمناطق المجاورة لها. وهم لا يزالون فيها حتى الآن أو أنهم أعطوا اسمهم على الأقل لجبل نفوسة وقد سكن بعض أحفادهم هناك.

ويبدو أن اللوا أو اللواته هم الذين يكونون القبيلة التي عاشت في برقة وحول اليونان أسماء أبنائها فأصبحوا الليبيين. ويقول ابن خلدون نقلا عن المسعودي: اللواته كانت من البدو المقيمين في نواحي برقة. ويضيف المسعودي (كما ذكر ابن خلدون) أن عددا كبيرا

من اللواتيين كانوا يقيمون في الواحات المصرية كما مسيطرين عليها في العصر الذي كتب فيه المسعودي. وقد تعرف ابن خلدون على بعض النسابين الذين ارجعوا اللواته لأصل قبطي.

وقد طبعت أفخاذ لواته بطابعها عدة مناطق في صحراء تونس وقسنطينة ونفزاوة اسم لا يزال يطلق حتى اليوم على مجموعة واحات الجريد. قبيلة نفزاوة احد أفخاذ لواته. وقد لعب بنو نفزاوة دورا مهما في بداية الفتح العربي.

وسدارته التي تقع على بعد عدة كيلومترات جنوبي ازرغلة اسم يطلق على مكان عثر فيه على أثار مهمة وبنو سدراته قبيلة لواتية يذكر ابن خلدون مجمل نسبها.

وبنو لواته من أهم الجمالين الذين أموا نواحي الأوراس قادمين من الشرق. وقد تعرف ابن خلدون في القرن الرابع عشر على أبناء هذه القبيلة في نواحي الأوراس وكانوا من القوة بحيث أنهم استطاعوا تجنيد ألف فارس كما كانوا خير عون للحفصيين حكام تونس. في نفس الحقبة التي كانت تقيم بالقرب من نغاوس قبيلة لواتية تقوم بجباية أموال كثيرة من سكان المدينة. ونغاوس واحة صغيرة معروفة تقع شمالي شرق هدنة.

ومجمل القول إن نفوسة ولواته قبيلتان يسهل تحديد مواقعهما.

وهناك طائفة أخرى مهمة من البتر تدعى ببني فاتن. ذكرها ابن خلدون في فصل كامل ويبدو أنها ليست من القبائل التي نزحت من الشرق وإنما تعتبر مغربية أصيلة.

وإليك ما يذكره ابن خلدون عن قبيلة متغرة إحدى هذه القبائل: كان أفرادها يقيمون في بيوت ثابتة من القش. كما كانوا موجودين في المغرب قبل ظهور الإسلام فيه. ويحدد المؤرخ العربي مواقعهم بجوار تلمسان في ممر تازه ويروي أن لهم قلعة اسمها تاونت وتقع بجوار البحر أي بضواحي تلمسان ليس بعيدا عن ندرومه.

وكان لهذه المنطقة من تلمسان اتصال وثيق بالصحراء، إذ أن بني متغرة لم يبقوا في أماكنهم وكانوا يغادرون بيوتهم المصنوعة من القش. وأبناء سجلماسة عاصمة مناطق النخيل الصحراوية بين تيوات وفجويج. حتى أن فجويج هي المنطقة الوحيدة التي كان فيها لبني متغرة سلطة سياسية في القرن الرابع عشر.

وبنو لماية فرع آخر من قبيلة بني فاتن. وهم أشقاء بني متغرة كما يروي ابن خلدون وكانوا يجوبون افريقية والمغرب كالبدو الرحل، غير أن معظمهم كانوا مقيمين في أواسط المغرب بجوار الصحراء.





وجدير بالذكر هنا أن بني لماية هم القبيلة التي أسست مملكة تاهرت. وبعد سقوطها تبعثر قوم بني لماية ومنهم من بلغ جنوبي تونس. فبنو جربة التي سميت الجزيرة باسمهم ينتمون لبني لماية.

وبنو مطماطة فرع آخر من بني فاتن واهم أشقاء بني متغرة وبني لماية. ويوجد في الوقت الحاضر جبلان يحملان اسم المطماطة كلاهما بعيد عن الآخر. الأول جنوبي الجريد التونسي ناحية ورسنيس. ويحدد ابن خلدون موقعهم الأصلي بشكل لا يرقى إليه الشك كان المطماطة في العصور القديمة يقطنون هضاب منداس والآن يعيش من تبقى منهم في ورسنيس.

ومن بني فاتن نذكر أيضا المغيلة وهما فئتان واحدة تسكن وسط المغرب والثانية تقطن السهول الممتدة من مصب شلف حتى مأذونة المدينة التي لا تزال موجودة (في عصر ابن خلدون) ومأذونة اليوم مدينة جميلة تقع في الضهرة شمالي شلف. أما الفئة الثانية فتقيم في المغرب الأقصى (مراكش) في الأراضي التي احتلتها وتقع بين فاس وسفرو مكناس ولا يزال فيها بعض من سلالتهم.

ثم يأتي بنو مديونة وهم كذلك أبناء فاتن وأشقاء المغيلة والمطماطة. وكانوا يقيمون في مقاطعة تلمسان حيث احتلوا الجزء الممتد من الجبل نسميه اليوم جبل بني راشد (جبل أمور اليوم) وحتى جبل ودجه الذي يحمل اسمهم. وهم اليوم بنوسنوس ومنهم أيضا من يقيم في غور تازه بجبل عين مديونة وآخرون يقيمون غربا شمالي فاس.

وأخيرا الكومية وهي أهم قبائل بني فاتن. وهي التي لحقت بعبد المؤمن إلى مراكش لتكون خير معين له وتعتبر مؤسسة الموحدين، "كانت قبيلة الكومية تقيم في الجهة الساحلية من بلاد المغرب الوسطي في نواحي ارشغول وتلمسان" ويضيف ابن خلدون أن احد أفخاذ القبيلة يحمل اسم ندرومه. إن تلمسان ومرفأها ارشغول (جزيرة رشقون الصغيرة عند مصب التفنه) ومدينة ندرومه القائمة حاليا، أدلة كافية لتحديد موطن بني كومية. ولم تنطفئ ذكراهم حتى الآن في التدراس نواحي ندرومة وغور. ويقول وليام مارسيه أن أهل هذه المنطقة لا يزالون يتكلمون لغة عربية قديمة تذكر بعهد لموحدين.

وإليك التوزيع الجغرافي الذي أعطاه ابن خلدون لقبيلة بني فاتن: أنها قبائل متحدرة من فاتن ابن تمزيت ابن دارس ابن مدغيس الأبتر.

ولسنا بالطبع قادرين على فهم لغة ابن خلدون السلالية هذه. غير انه بإمكاننا تحديد المواقع الجغرافية لهذه التسميات، وذلك لإيضاح الأمور. فبنو فاتن قبائل عثر

عليها الفتح العربي وهي في حالة تجمع عبر بلاد واسعة ومتمازجة. وهي أواسط المغرب والسهول المحاذية لسواحل وهران الممتدة عبر غور تازه. والهضاب الوهرانية والعالية. وشطرها المؤدي إلى الصحراء الكبرى.

في نفس المنطقة أيضا كان يقيم بنو مكناسه الذين أعطوا اسمهم لمكناس. وكانوا يقطنون كما قال ابن خلدون على ضفاف المولوية ابتداء من منبعه ناحية سجلماسة حتى مصبه. ثم ابتداء من هذه المنطقة وحتى نواحي تازة. وقد أسس بنو مكناسة مدينة قرصيف ومنطقة تازه كما أنشأوا أسرة حاكمة في تسول وهي نقطة يمكن العثور عليها بين قرصيف وتازة.

كما حكمت أسرة مكناسية أخرى مدينة سجلماسة والمنطقة المحيطة بها. لكن هذا الفرع من بني مكناسة لا ينتمون لبني فاتن بل اقرب لبني زناتة.

والزناتة بين جميع قبائل البتر تحتل مكانة خاصة عند ابن خلدون حيث خصص لها الصفحات الطوال في الجزء الثالث من ترجمة سلان. ويقول أن البتر يتكونون من الزناتيين وبعض الأسر الأخرى.

وقد أصبحنا على علم بالتوزيع الجغرافي للزناتيين وهو مماثل لتوزيع البتر بشكل عام. ويشير النسابون العرب مع ذلك إلى قرابة شديدة بين بني فاتن وبني مكناسة الزناتيين من جهة. وبين بني نفوسة وبني لواتة من جهة ثانية. وهذا رسم بياني يوضح القرابة بينهما:

وهذا ما يتفق كل الاتفاق مع التوزيع الجغرافي. فبنو نفوسة وبنو لواتة من القبائل الشرقية المستوطنة وهم طرابلسيون. أما بنو فاتن والزناتيون فاقل صلة بالشرق. واغلب

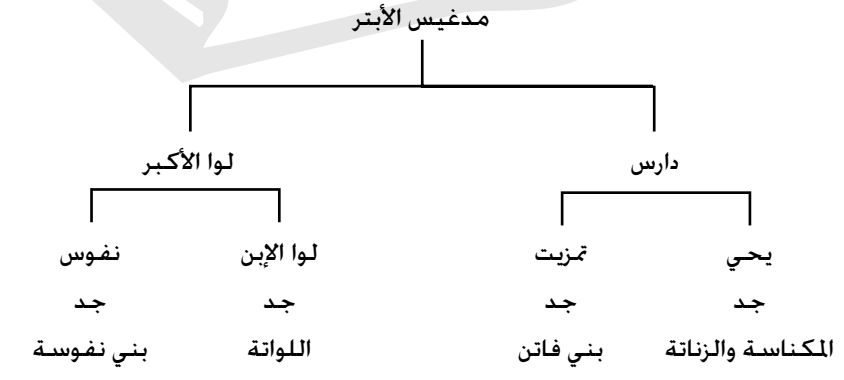






الظن أنهم مستوطنون أصليون تزاوجوا مع قبائل أخرى. وهم متجمعون بنوع خاص في وسط المغرب ومنطقة الشلف ومنطقة تلمسان وغور تازه والهضاب الوهرانية.

على ضوء ذلك تمكننا الاستعانة بالخريطة لنحدد المواقع. فالبتر هم البربر الذين استوطنوا بين السهول المرتفعة والواطئة، الصحراوية والهضبة الجرداء، الممتدة بلا انقطاع من المنطقة الطرابلسية إلى غور تازه. وهم من البدو الرحل بالطبع. فليس في بلادهم ما يدل على غير ذلك. وهم رعاة للإبل أو معاونون لهؤلاء الرعاة. والبتر هم الزناتة أنفسهم لان القبيلة الواحدة تعرف عدة تسميات. وقد أمحى اسم البتر ليحل اسم الزناتة محله تدريجيا حين قويت شوكة هؤلاء وأصبحوا اشد سيطرة على سائر فروع البتر.

وهكذا يتبين لنا بعد تمحيص دقيق للمراجع العربية كيف ظهرت القبائل الجديدة مع ظهور الجمل.

إن دراسة فروع البتر توضح لنا تفاصيل دقيقة. فالمعاصرون يجدون بعض التمايز بين فئة شرقية استوطنت الصحراء الشرقية وهما قبيلتا النفزاوة ولواته. وفئة غريبة أصلية مركزها تلمسان. والفئة الأولى هي التي جاءت بالجمل. لنعلم الفئة الثانية فن استخدامه. هاتان الفئتان هما اللتان كونتا قبيلة الزناتة مع الوقت.

وإذا كانت الكتب قد أغفلت اسم البتر تقريبا فهي لم تغفل جدهم مدغيس الأبتر.

وكلنا يعرف ضريح مدغاس الضخم في شمالي الأوراس وهو شبيه بضريح "النصرانية" في الجزائر وضريح جدار في تاهرت. أنها أضرحة ضخمة تضاهي أهرام مصر. سوى أنها مغربية محضة لان فيها طراز الرجم الليبية. أي عبارة عن كمية من الحجارة تلقى فوق الضريح. وهي تعود لأبناء الأسر الحاكمة قبل الإسلام.

وتعرف النسابون البربر على قبر مدغيس الأبتر بينها. فكلمة مدغاسن تعني قبر مدغيس. ولا حاجة للقول أن هذا الزعم غير صحيح لان مدغيس لم يكن موجودا، وإنما يعود الضريح لأحد الأمراء النوميديين. وقد سمي أحيانا بضريح صفاقس. على أن الأمر ليس واضحا كل الوضوح. فقبر "النصرانية" وقبور تاهرت تعود للأمراء الموريتانيين وليس النوميديين. وإذا كان اسم مدغيس الرجل الوهمي قد اخذ صفاقس، فهل يعني ذلك أن نسابي البربر يشعرون بوجود صلة بين النوميديين والبتر؟ بوسعنا في هذا المجال أن نطرح العديد من التساؤلات. لكنه من المرجح أن هؤلاء البتر حين قدموا من الشرق وضعوا يدهم على مدغاسن لأنهم وجدوه في طريقهم.

ومن المؤكد على كل حال أن اسم مدغاسن هذا المرتبط ارتباطا وثيقا بالضريح، يوضح النص الذي كتبه ابن خلدون. فمن الواضح أن المغرب قد عرف في العصر الوسيط الأول مجموعة من قبائل البتر التي تحدر منها الزناتيون. وهم مجموعة القبائل الرحالة الكبرى.

## البرنس

ولنلق الآن ضوءا على فروع البرانس. وهو الفرع الذي لا يوليه ابن خلدون كبير اهتمام. ويكتفي بتخصيص عدة صفحات له. وعدم التفاته لهؤلاء أمر طبيعي، فمغرب ابن خلدون كان يسوده الزناتيون أي البتر. ومع الأسر الزناتية الحاكمة قضى كاتبنا معظم حياته الناشطة.

أما أهم قبائل البرانس فهي كتامة وصنهاجة ومصمودة.

وقبيلة مصمودة هم سكان جبال الأطلس المراكشي الذين ساندوا الموحدين. وسنتحدث فيما بعد عن الكتاميين والصنهاجيين الذين يعتبرون أجداد القبائل الجزائريين. ولنشر هنا إلى أن هناك قبيلة صنهاجية أخرى في مراكش يسميها ابن خلدون صنهاجة العرق الثالث وهي غير صنهاجة الجزائر. ويطلق عليها اسم زناغة وكانت مستوطنة في الناحية الشرقية للأطلس المراكشي شرقي مصموده. وهي التي تشكل اليوم جماعة البرابر في مراكش المقيمين بين غورتازه والصحراء. ولنضف هنا أن الغماريين يقيمون في "الريف" الموازي للمتوسط والغماريون قبيلة مصمودية. فجميع الجبال المراكشية ومناطق القبائل الجزائرية تعتبر موطنا للبرانس.

وهناك قبيلة أخرى من البرانس هي قبيلة اورابة وقد لعبت دورا بارزا في بداية الفتح العربي بقيادة كسيلة احد أبنائها. ولا يضع ابن خلدون حدودا واضحة لها. ويرى ماسكوراي أنها القبيلة التي تقطن سلسلة الأوراس الغربية ويعيش أحفادها حاليا في الوديان العالية وهي منطقة بشكل ملحوظ وتدعى وادي العبدي ووادي العرب. ولعل ماسكوراي قد بالغ في إرجاعهم لهذا الأصل لأنهم يختلفون حتى من حيث اللهجة عن جيرانهم الزناتيين المقيمين في الأوراس الشرقي. ولابد من القول هنا إن قلب الأوراس يتمتع بميزات خاصة لأنه كان في منأى عن غزو الجمالين الرحل وتسرب البتر.

يمكننا -بغية إكمال الائحة-إضافة فرعين صغيرين: بنو عجيسة وهم فرع آخر من البرانس كانوا يقيمون بجوار صنهاجة في الجبال المطلة على مسيلة ومنهم فئة استوطنت جبل القلعة (جبل بني حماد). ولكن لماذا ميزهم النسابون عن الصنهاجيين





والقبائل رغم أنهم عاشوا بجوارهم؟ مرد ذلك إلى أنهم رفضوا التكتل مع الآخرين وانضموا لصفوف العدو. "وحيث أنهم حاربوا مع أبي يزيد (صاحب الحمار). فقد اختار أن يلجأ إليهم ويتحصن في القلعة، بعد ذلك اختار حماد ابن بلكين في أرضهم مكانا بنى فيه مدينة جعلها مقرا له. وهكذا انتزعت الأرض من بني عجيسة فتمردوا عليه فحصدهم بالسيف.

هناك أيضا فرع آخر هم بنو عسدجة وينسبهم البعض للبرانس. وكانوا يقيمون في نواحي وهران، فهم من البتر بالنسبة لمحل إقامتهم. لذلك اعتبرهم عدد من النسابين البربر في عداد القبائل الزناتية. لكنهم خانوا العهد وتحالفوا مع قبيلة كتامة التي أقطعتهم مدينة وهران ثمنا لولائهم. لقد كانوا يكرهون الزناتيين كرها شديدا ولم يخلصوا لهم. ومن المعروف أن وهران كانت مركزا حيويا للاتصال بين الأمويين في اسبانيا وبين الزناتيين حلفائهم الدائمين. وجرى الاستيلاء على وهران وأحرقت المدينة وأبيد عدد كبير من هذه القبيلة.

وليست الهوة سحيقة بين المنطقة الجبلية والمناطق السهلية الكبرى على كل حال فهناك نقاط التقاء بينها. وكانت روح الخيانة والتردد سائدة بين أولئك الناس المقيمين على الحدود. يبدو لي والحالة هذه أن مثال عجيسة وعسدجة يلقي ضوءا على استنادات النسابين. فهم لا يستطيعون أن ينظروا للوقائع التاريخية إلا من زاوية النسب والعرق والتبني. ولا يعنون إلا بالمفاخرة.

من هنا يمكن أن نخلص للوقائع التالية: أن أحفاد البرانس هم الذين استقروا في الجبال، أما أبناء مدغيس فهم سكان السهول الرحل. ذلك أمر لا ريب فيه في إطار بلاد المغرب نفسها.

## الملثمون

وفي أعماق الصحراء من ناحية السودان يعيش قوم آخرون من البربر الذين ر ينتمون لتينك الفئتين الانفتي الذكر. وهؤلاء هم الملثمون الذين تحدر منهم الطوارق. وينتمون لقبيلتي اللمته واللمتونه. ويسهب ابن خلدون في الحديث عن القوم "الذين كانوا يضعون على وجوههم اللثام وهو زي يفرقهم عن سائر الأمم. أقام الملثمون في المناطق الجدبة الممتدة وسط الصحراء حيث احتلوا أماكن مجاورة لريف الحبشة (السودان اليوم) وكذلك المنطقة الفاصلة بين بلاد البربر وبلاد الزنوج".

ويعتبر هؤلاء من كبار الجمالين الرحل وهذا ما يميزهم عن غيرهم من سكان المغرب.

وقد اثروا الأماكن البعيدة عن التل والبلدان الخيرة لأنهم كانوا يعيشون على لبن النوق ولحم الإبل.

ولكن هل هم من البتر أم من البرانس؟

ليست الإجابة على هذا السؤال لان هناك فئتين م الملثمين. فالغربيون أبناء لمته ولمتونه أسسوا أسرة المرابطين ويمتون بصلة النسب لكتلة الزناغة في مراكش. كما ذكروا قرابتهم مع صنهاجيي القبائل. وبذلك يكونون من البرانس.

لكن الملثمين الشرقيين ينتمون إلى الهقار ومنهم قبيلة هوارة التي اشتهرت في مطلع الفتح العربي. ومن المؤكد أن بني هوارة قدموا من برقة وطرابلس وكان لهم دور يذكر في تونس والأوراس. فهم إذن من البتر أشقاء بني نفوسة ولواتة.

ويغوص النسابون في سلسلة من الزيجات المعقدة للربط بين هاتين الفئتين بصورة لا يمكن الاعتماد عليها. لكن هناك ملامح أساسية بوسعنا اللجوء إليها.

فجميع الملثمين من شرقيين وغربيين هم أبناء تسكي العرجاء. وتسكي امرأة من البتر متحدرة من مدغيس، وقد اقترنت بواحد من البتر ثم بعدة برانس. لكنها هي الأصل. والملثمون هم أبناء تسكي العرجاء قبل كل شيء. قد يبدو الأمر مستغربا لكن بين ملثمي اليوم دلائل كثيرة تشير لأولوية الأمر.

ولو شئنا أن نغربل ما مر معنا من انساب يمكننا الوصول إلى نتيجة دقيقة وهي أن البربر ينقسمون لثلاث فئات كبيرة متمايزة جغرافيا، أي أنهم ينتمون لثلاث مقاطعات تقطنها ثلاث قبائل مختلفة لكل منها سماتها الخاصة.

كان البتر أبناء مدغيس فيهم زناتة أهم قبائلهم -كانوا محاطين على الخريطة بملثمي الصحراء البعيدة من جهة (وهم المتحدرون من تسكي العرجاء) وبالقبائل الجزائريين والمراكشيين سكان الجبال الذين ينتسبون إلى برنس.

وفي هذا المجال يأتي و.مارسيه بتفسير جديد بما له من طول باع في اللغة العربية.

يرى مارسيه أن التمييز بين البرانس والبتر يعود للقرن الثامن الميلادي على الأقل ويرتكز أساسا على فوارق اللباس التي لاحظها العرب عند البربر في أول عهدهم بهم. فمنهم من كان يرتدي البرنس، فأطلق عليهم اسم البرانس ومنهم من كان يرتدي ثوبا اقصر فسموا بالبتر.





ولكن كيف لنا أن نصنف الملثمين ولباسهم يختلف اختلافا شديدا عن لباس كل من البتر والبرانس؟ مارسيه نفسه يقول أن رأيه محض افتراض.

ولنشر هنا إلى أن أحفادنا البتر هم الذين يرتدون البرنس في أيامنا هذه وهو لباس الفرسان. واصل التفرقة بين البرانس والبتر لا يزال مختبئا في غياهب العصور المظلمة.

## الخلاصة

لا يسعنا هنا إلا أن نعترف بمحاذير اللجوء لعلم السلالات كما أوردها ابن خلدون في محاولة استكشاف أصل البربر.

غير أنه ليس بمستطاعنا أن نضرب عرض الحائط بتردد اسم البرانس والبتر كل لحظة فيما أورده المؤرخ العربي الكبير. لاسيما وانه لا يستحيل علينا أن ننقل المفهوم البيولوجي والسلالي إلى صعيد آخر، وآخر هو الصعيد الجغرافي الذي نحسن فهمه.

إن تلكؤنا في هذا المجال هو السبب الأساسي لذلك الغموض الذي يكتنف تاريخ المغرب المسلم.

لقد درج الباحثون على تقسيم تاريخ المغرب إلى قسمين منذ ألفي سنة حتى اليوم. فنحن نتحدث اليوم عن العرب والقبائل. وفي العهد القديم كانوا يتحدثون عن النوميديين والمغاربة. وفي العصر الوسيط ورد اسم البتر والبرانس. وما هي أسماء متباينة لفئات معينة من البدو والحضر تغيرت ألقابها بتغير الظروف.

وسنذكر في فصل لاحق كيف أصبح البتر الزناتيون عربا. وبتنا نعرف كيف أن ظهور الجمل قد احدث ثورة في عصر النوميديين والبتر. وان نحن شئنا إغفال هذه الثورة، والإمساك عن ذكر شخصية قبائل البتر، فلابد لتاريخ المغرب أن يبقى في ظلامه.

وحري بنا أن نذكر أن الاختلاف الحياتي ليس وحيدا بين البتر والبرانس. لان فريقا كبيرا من البتر يعدون غرباء من أبناء الصحراء. ثم إن الفريق الأصيل تأثر كثير بالفريق الطارئ. لكن البرانس -ولاسيما الشرقيين منهم أجداد قبائل الجزائر، حافظوا على اتصالهم الوثيق بقرطاجة في العهدين البوني والروماني. أي أنهم ظلوا على صلة بالحضارة. وكانوا من معتنقي النصرانية عند قدوم المسلمين. وكثيرون من لبتر كانوا يهودا أو وثنيين كما أورد المؤرخون العرب. فكيف لنا أن نفهم الأمور لو تجاوزنا الفوارق العميقة بين هاتين الطائفتين من سكان المغرب؟

واليك هذه الخاصة الأخيرة التي تدل على وجود مغربين متمايزين لكل منهما مجتمعه ونمط حياته.

فهناك فوارق جمة في طراز البناء لدى البتر أو الزناتيين ثم لدى البرانس الذين نطلق عليهم اسم القبائل. الفارق الأول هو أن بيت القبائل له سطح من الآجر، وبيت الزناتة مزود بشرفة. وهو دليل كبير على الفارق بين الاثنين. ذلك أن الشرفة ضرورية في المجتمع الشرقي حيث المرأة محجبة لا تخرج إلى الشارع وليس بالإمكان عزل النساء جنبا إلى جنب إلا بواسطة الشرفاء.

والفارق الآخر الذي أعجب من إغفاله، إنما هو الطابع المدني للوحدات السكنية الخاصة بالزناتيين. فالمجتمع السكني في الصحراء يضم نحو مئة شخص وهو مبني من الطين الصلب على غرار بابل وممفيس، لكن هندسته ماهرة ومعقدة، حيث أن البيوت مكونة من عدة طوابق تصل بينها أدراج رصفت بإحكام. وللبيوت شرفات متقنة لها مزاريب. وفي الشوارع ممرات مسقوفة، ومقاعد للعموم يجلس عليها عابرو السبيل. وفي القرية سوق تتخللها حوانيت التجار والصناع وكذلك المقاهي وأماكن اللهو.

على هذه القرية الزناتية تخيم روح البداوة كما نرى. فبود الراعي الذي يلحق بقطيعه شهورا أن يعود إلى مكان أمين يجد فيه الراحة واللذة. ولا يرى امرأته تخرج من بيتها ليبصر بها الرعيان الآخرون. وغالبا ما يكون البيت ملكا لهذا الراعي النبيل الذي بجانبه السيف دائما. فهو شديد الحرص على شرفه. هكذا نرى ان المجتمعات السكنية في توات أو غرارة أو فجويج أشبه بصورة مصغرة لمدينة تلمسان. مع فارق المستوى والإمكانيات.

أما التجمع السكني عند القبائل فعلى العكس من ذلك تماما حيث يعيش القبلي في القرية حياة مستقلة خشنة. وحتى المدن نفسها كقسنطينية وميديا ومليانة ليست سوى قرى كبيرة.

ويلاحظ السياح أن هذه المدن لا تضاهي من ناحية بنائها وتصاميمها تلمسان عاصمة الزناتيين تلك اللؤلؤة الشرقية.

وهنا تتزاحم في ذهننا مجموعة من الأفكار التي لم يسهب في بحثها احد في حين أنها جديرة بالاهتمام. وخليق بنا أن نتذكر أن البتر والبرانس قد تركوا سلالتين متباينتين لكل منهما ميزاتها الخاصة المستقلة عن الأخرى.



# الكتاب الرابع
# العصور المظلمة في بلاد المغرب

# الفتح العربي
# نوميديا القديمة مركز المقاومة

## بداية الفتح العربي

إذا كانت بلاد المغرب قد طبعت بطابع قرطاجة الشرقي في طيلة عهد الإمبراطورية الرومانية فان ظهور الجمل ونشوء القبائل البدوية الكبرى قد أديا لخلق مغرب جديد هو مغرب البتر وزناتة إلى جانب المغرب اللاتيني نوعا وهو مغرب جديد هو مغرب البتر وزناتة إلى جانب المغرب اللاتيني نوعا وهو مغرب البرانس. تلك هي وقائع لا يمكن بدونها أن نفهم حقيقة الفتح العربي. وليس من السهل سرد تاريخه حتى بعد تنبهنا لهذه الحقيقة.

## لمحة إجمالية

أصبح تاريخ المغرب متشابكا جدا بعد انهيار الحكم البيزنطي. فهل بوسعنا أن نعثر على خطوطه العامة رغم كل شيء؟ يبدو لي أن الأمر ممكن.

إن نتائج الفتح العربي لا تزال تبهرنا بعد مرور اثني عشر قرنا عليها. لقد استعرب المغرب بعمق واعتنق الإسلام بأصالة. وأنها لنتيجة مدهشة لاسيما وانه ما من فتح آخر في التاريخ كان له هذا الأثر البعيد. ولنعد الآن إلى القرن السابع الميلادي عصر الفتح الإسلامي. لقد وقعت ثورة كبرى في ذلك الوقت، واخترقت البلاد ذاك الحاجز الكثيف الذي يفصل بين الشرق والغرب. وإنها لقفزة تعجز الثورة الفرنسية أو الروسية عن مضاهاتها، وإذا انعمنا النظر في التفاصيل وجدنا أن الفتح العربي كان طويلا ومفعما بالحوادث. ذلك لان مقاومة عنيدة قد وقفت في وجهه.

بدأت أولى الحملات العربية على المغرب في عام 641 و642. وقد هزم البطريق جرجير (غريغوار) وجماعته البيزنطية في سبيطلة سنة 647. أسست مدينة القيروان سنة 670. ويعود تاريخ حملة عقبة (التي لم تصل إلى نتائج مستمرة) التي قادت العرب حتى الأطلسي لسنة 683. وبدأت حملة موسى بن نصير الثانية الكبرى سنة 708 حيث اقتفى أثار عقبة. وكانت غزوة اسبانية سنة 711.

استمرت الغزوات إذن سبعين سنة قبل فتح البلاد. وانهزام العرب مرات كثيرة وطردوا من البلاد كليا خلال تلك السنوات. فقد أبيد عقبة وجيشه حتى آخر رجل في بسكره (683). وقد أخلى زهير افريقية سنة 690 بعد إحرازه انتصارا مؤقتا وتراجع نحو مصر وقتل في برقة وهو في طريقه إليها. وهزم حسان سنة 698 بعد أن قدم على رأس جيش جرار جاء ليثأر لأسلافه. كان ذلك في مسكيانه على سفح الأوراس. وكانت الهزيمة مرة إلى حد اضطر فيه العرب للتراجع إلى برقة بغية تنظيم صفوفهم ومحاولة الصمود. ولجأ حسان إلى تحصينات دعيت بقصور حسان.

والقيروان التي كانت مخزنا للسلاح كما يدل اسمها سقطت عدة مرات في أيدي البربر قبل أن يسترجعها العرب.

ويروي المؤرخون العرب مرارة هذه الحرب فيقول ابن أبي يزيد أن البربر قد حنثوا بوعودهم اثنتي عشرة مرة، عادوا فيها لمحاربة العرب. ليس هذا الرقم بالطبع.

ويقول ابن عبد الحكم أقدم المؤرخين العرب أن الخليفة عمر بن الخطاب أجاب على المطالبين بغزو افريقية قائلا:

لا ينبغي أن نسمي هذه البلاد بافريقية، بل هي المفرقة الغادرة ولن اسمح بالاقتراب منها أو الحملة عليها ما دام دمع أجفاني يروي مآقي. قد تكون هذه الكلمات منحولة غير أنها على يأس الرأي العام من الحملات الفاشلة المتوالية.

والمغرب بعيد عن مصر التي تصلح قاعدة للغزو. ويفصله عنها نحو ألفي كيلومتر من الطرقات الصحراوية التي يندر فيها الماء.

ولو تنبهنا لهذا الواقع لوجدنا أن مجهود العرب في فتح المغرب كان عظيما وكذلك كانت مقاومة المغاربة. فلعل هؤلاء باتوا بعد سبعة قرون من السيطرة الرومانية والبيزنطية يرفضون أي نوع من أنواع التعاون مع الأجنبي.

ولم يحقق العرب نصرهم النهائي وفتح اسبانية إلا على يد موسى بن نصير. في تلك الفترة أصبح المغرب محاطا بمركزين من مراكز الإشعاع الإسلامي تونس من جهة وبلاد الأندلس من جهة أخرى، ولم يعد لديه مجال كبير للرفض. غير أن الخلافة الإسلامية لم تبسط سيطرتها إلا على تونس والأندلس حيث استطاع الإسلام أن يستقطب حوله الناس في هاتين المنطقتين الحضاريتين. لكن المغرب بحد ذاته ظل في حالة عصيان مستمر.





ففي سنة 741 تم القضاء على الجيش العربي مرتين في مراكش. كان ذلك في معركة طنجة يوم الشرفاء الذي قتل فيه جميع العرب ثم على شواطئ وادي سبع حيث استشهد القائد العربي كلثوم وهو يتلو آيات من القران.

وفي سنة 757 هزمت قبيلة ورفجومة البربرية جيش الخليفة واستولت على القيروان ونهبتها. وفي سنة 771 حاصر البربر القيروان مرة أخرى وقتل عامل الخليفة عمر في معركة يائسة انقض فيها على الأعداء "كالجمل الهائج". كما كتب حسان للخليفة يقول: يبدو فتح افريقية أمرا مستحيلا فما تكاد تباد قبيلة بربرية حتى تقوم في مكانها قبيلة أخرى.

وابتداء من القرن التاسع انقلبت الأشياء وأصبح المغرب هو المهاجم وأقدمت قبيلة بربرية على طرد العرب من افريقية وتابعت هجومها في الاتجاه المعاكس حتى بلغت مصر وأنشأت فيها حكم الفاطميين.

وتوصلت الخلافة في النهاية لنشر الإسلام في بلاد المغرب لكنها لم تتمكن من إخضاعه لسلطتها بكل معنى الكلمة.

وبعد انهيار السلطة المسيحية وقيام الإسلام في المغرب، بدأت البلاد تعي ذاتها وتكوينها السياسي طيلة القرون الوسطى. غير أنها لم تفلح في ذلك. على الرغم من أن ابن خلدون تحدث عن صفات مميزة عند البربر حيث قال: لقد كان البربر على الدوام شعبا قويا مهيب الجانب شجاعا كثير العدد. انه شعب حقيقي كسائر الشعوب شأن العرب والفرس والإغريق والرومان. ولكن ما الذي حال دون وعي البربر لذاتهم، وحتى أن ذكراهم قد تبددت بعد ابن خلدون كما أمحى اسمهم من البلاد البربرية؟ لقد سبق لنا القول إن هذه هي المعظلة الرئيسية في مجمل تاريخ المغرب. وإذا أمكنت الإجابة على هذا السؤال، فعلينا أن نبحث عنها في العصر الوسيط الأول حيث كان المغرب سيد مصيره.

ولا يستحيل علينا تفسير تلك الحقبة ن التاريخ رغم صعوبتها. وعلينا أن نزيح ظل الغمامة التي أوجدها علماء الأنساب في سردهم لأسماء العائلات بتواريخها الدقيقة. فبإمكاننا على ما أظن أن ننظم هذه الأسماء ونصنفها. ولن يتم ذلك عن طريق التعلق بأسماء الأبطال والتفاصيل المحيطة بحياتهم. وإنما يقتضي الأمر تحديد الرقعة الجغرافية التي أغفلها المؤرخون العرب إغفالا تاما. وهذا مجال رحب للجغرافيا لتشد أزر التاريخ.

وأظن أننا لو لجأنا إليها سنستطيع ولا شك أن نزيح تلك الغمامة وان نشهد وجود مقاطعات عديدة رفعت علم المغرب وقامت بجهود بائسة من اجل ذلك.

## موقف افريقية. الصدمة الأولى.

لابد وان يتبادر للذهن أن افريقية هي مهد المقاومة المغربية نظرا لتأثرها بالحضارة البونية والرومانية. وقد صح فيها قول ابن خلدون في الحضارات الشرقية القديمة كبلاد ما بين النهرين وسورية التي حل فيها الفتح الإسلامي فجأة فاعتنقت الإسلام على الفور. فحين طرد المسلمون الجيش الأجنبي لم يبق هناك خوف من المقاومة أو الثورة.

وينطبق الأمر كليا على افريقية بحد ذاتها أو على قرطاجة بالأحرى.

وقد ذكر المؤرخون العرب المعروفون بمبالغاتهم أخبار ابنة البطريق جرجير التي سموها آمنة. وقالوا أنها كانت من نصيب واحد من الأنصار، فوضعها هذا على طريق جمل وسار بها وهو يردد: يا ابنة جرجير ستسيرين مشيا على الأقدام. ففي الحجاز تنتظرك سيدتك حيث ستحملين الماء في القرب.

ولما سمعت هذا الكلام سألت عن معناه وما إن فهمت حتى ألقت بنفسها من على ظهر جملها فكسرت عنقها وماتت.

والواقع انه لا يسهل علينا من المؤرخين العرب أن نميز الحقيقة من الخيال. وقد تكون آمنة غير موجودة على الإطلاق. لكنها على كل حال ترمز لتلك الحقبة الرهيبة التي ترافق جميع الثورات. وتمثل بنوع خاص امرأة ارستقراطية مرفهة في أيدي بدو رحل. لقد كان العرب من الذكاء بحيث أدركوا معنى المأساة، ومن القسوة بحيث أبوا إلا أن يستمتعوا بها. ولا شك أم حوادث أليمة قد وقعت غير أنها ليست كثيرة العدد.

ومن المدهش حقا إلا نعثر على اثر لقرطاجة أو المدن المجاورة لها في تلك الفترة المحمومة من بداية الفتح العربي. فقد هزم الجيش البيزنطي في سبيطلة بقيادة جرجير جنوبي تونس. لكن العرب لم يزحفوا على قرطاجة بل أقاموا بما لهم من خبراء حكومة نظامية تجبي الضرائب. ثم لم يعنوا بقرطاجة إلا مرة واحدة سنة 698 (تقريبا). في نفس الفترة أي بعد نصف قرن من معركة سبيطلة كانت قرطاجة في أيدي البيزنطيين وفيها جيش وأسطول بيزنطيان. ووضع حسان حاكم القيروان الجديد حدا لهذا التهديد وهاجم قرطاجة مرتين في خلال شهور أو أسابيع. وعاد الأسطول البيزنطي للاستيلاء على المدينة بين الفترتين، الأمر الذي مكن السكان من الهجرة حيث قصد بعضهم





إلى صقلية والبعض الآخر اسبانية. ويقول ابن عبد الحكم إنه لم يبق في المدينة سوى القلائل نم فقراء الروم أما الباقي ففر مع الحاكم. ويضيف البيان أن ما تبقى من السكان استجاب لنداء حسان بإخلاء المدينة بعد تدميرها وتقويض أركانها. وقد جاء الأثير برواية مماثلة: جاب حسان المدينة برجاله فروع السكان الذين استجابوا لطلبه بتهديم المدينة.

واختفت قرطاجة لتأخذ تونس مكانها على الفور. وأمر حسان نفسه بشق قناة تصل بحيرة المدينة بالبحر. فليس بوسع الخليفة الذي ليس له منفذ على البحر أن يبقي على مرفأ قرطاجة المنعزل بحيث يصعب الذود عنه.انه حدث مهم، يعتبر عملا عسكريا صغيرا جرى تنفيذه بسرعة. فمن الواجب أقفال آخر منفذ تستطيع من بيزنطة إرسال إمداداتها. مما يذكرنا بحصار سبيون اميليان لقرطاجة وما تميز به من قوة كفاح وحماسة شعبية لدى البونيين. كما يذكرنا باستروبال التي ألقت بولديها في الهيكل الملتهب ثم قفزت وراءها في اللهب. كانت قرطاجة في ذلك الوقت قلب المغرب النابض. أما في سنة 798 فأصبحت ثانوية ولم تعد هي التي تقف في وجه الفاتحين العرب.

وتطلع الفاتحون إلى القيروان جوهرة الصحراء وهي المدينة الواقعة على الطريق المؤدية إلى مصر وتصلح أن تكون مركزا للهجوم والتراجع. كما أنها تواجه الأوراس. ففي هذه المدينة وليس في غيرها من المدن الشمالية يكمن العدو المهيب الجانب، ذاك العدو الذي لا يمكن القضاء عليه كليا في المرتفعات الجبلية والوديان العالية الممتدة نحو الشمال. تلك هي نوميديا الرومانية والقرطاجية بالضبط.

ومما لا شك فيه أن أقوى صدام وقع في السنوات العشر الأولى للفتح العربي كان حول الأوراس. وظل الوضع كما هو عليه عندما عاد البيزنطيون للاستيلاء على المنطقة. وقد ركز سليمان الخصي قائد البيزنطيين معظم جهوده العسكرية على الأوراس ونوميديا. ولم تتكرر هذه الظاهرة مرة أخرى، ولم يعد احد يأتي على ذكر نوميديا إلا لماما في تاريخ المغرب. ذلك أن قلب الغرب النابض قد تحول إلى مكان آخر.

## نوميديا الطبيعية

نوميديا التي أصبحت اليوم بلاد الشاوية متميزة منذ القدم من حيث طبيعة أرضها ومناخها.

أما الأوراس فقلعة جبلية يسهل الدفاع عنها لان عبورها شاق. ويطلق اليوم على المنطقة الممتدة شمالا اسم مرتفعات قسنطينة ولكن الاسم لم يحسن اختياره. وذلك لأنها ليست كالمرتفعات الأخرى الممتدة من هدنة إلى مولوية. وبإمكان كل مسافر

بالقطار بين قسنطينة وبسكرة أن يلاحظ ذلك. فهي سهول عالية تمتد على شكل أفقي امتدادا محدودا متقطعا تتخلله بعض السلاسل المرتفعة أحيانا. فهناك يتداخل السهل والجبل بصورة غير منتظمة ليكونا طبيعة مميزة، تختلف بالطبع عن جبال القبائل.

كما وتتميز المنطقة بمناخها الخاص، وهي معروفة بسهولها ذات الجو الجاف الغنية بالمراعي على نحو مختلف عن المرتفعات الهضبية نفسها. وهي غنية بمصادر المياه، وتجتذب التجمعات البشرية المتطلعة لحياة الاستقرار. وهكذا يمكن اعتبارها منطقة متوسطة بين بلاد القبائل والمرتفعات العالية.

وفي العصور القديمة وقبل ظهور الجمل الذي نقل الحياة البدوية للسهوب والصحارى كانت نوميديا بلاد البداوة الأولى.

كما كانت نافذة لموريتانيا تقف منعها في وجه الفتح العربي. ويبدو هذا الأمر واضحا رغم ضآلة المعلومات التاريخية في هذا المجال ورغم صعوبة الحديث بدقة عما جرى في تلك الحقبة.

وليس ذلك بسبب الغموض والإبهام اللذان اكتفا كتابيات المؤرخين العرب عن العلاقات العربية البربرية فحسب، بل لأننا لا نملك معلومات كافية تسمح لنا بغربلة ما أورده هؤلاء عن نوميديا في القرن السابع.

ويعتبر تاريخ نوميديا من أصعب الدراسات حول المغرب لأنها سارت في طريق يصعب تتبعه.

## نوميديا في العهدين القرطاجي والروماني

نتتبع الآن مسيرة نوميديا في عصر قرطاجة وروما. كانت في البداية موطن البدو الرحل، الذين لم يعرفوا الإبل والخيام، وكانوا يستعملون في تنقلاتهم بيوتا من القش ذات عجلات. (تدعى مباليا كما سماها القدماء). لقد كان سكانها مجموعة من القبائل الكبيرة المنضوية تحت لواء أمراء شديدي البأس من أمثال مسنيسا وصفاقس وجوغرتا.

وتعرضت نوميديا لتحول كبير في عهد الإمبراطورية الرومانية. وأصبحت البلاد مركزا للزراعات المستقرة. وفيها أحرزت السيطرة الرومانية على نجاحاتها الكبيرة وقامت المدن الكبرى على الهضبة العالية أو في الأودية العالية شمالي الأوراس. كما قامت المدن أيضا على سفوح الجبال ومنها تافيستا ومسكولا وباغاي وتمجاد ولمبيز وتبنه. وهناك كان





مركز الثقل في قوة افريقية العسكرية حيث كانت تتمركز إحدى الفرق التابعة للجيش الروماني الثالث بصورة مستمرة. ولو اتجهنا أكثر نحو لوجدنا مدنا أخرى فوق الهضبة العالية مثل مادورا موطن القديس اغسطينوس وابوليا. لقد أصبحت المنطقة مختلفة كل الاختلاف عن نوميديا التي ألفناها، سوى أن الرومان حافظوا على اسمها بعد اختفاء البدو الرحل. في نفس الفترة لم يستطع الرومان السيطرة على موريتانيا، جبال القبائل حاليا، بصورة كلية، فالآثار الرومانية فيها نادرة. وذلك على الرغم من أراضيها المروية وإمكانياتها الزراعية. ولو تعمقنا في الأمر لما استغربنا هذه الظاهرة. فالفلاح حيثما كان لا يتخلى عن أرضه بسهولة. أما البدوي فليس له جذور ولا يخشى جانبه إلا في الحرب في حين أن حياة النظام والاستقرار والأمن من شأنها أن تقضي عليه تدريجيا.

ويوجد بمحاذاة الصحراء على المرتفعات العالية أراض زراعية لا تخفى على ذكاء الفلاح نظرا لوفرة المطر فيها. غير أنها في نفس الوقت مناطق يتطلع إليها رعيان الماشية الرحل. لذا تعرضت لمصير تقلب بتقلب الأنظمة السياسية. ففي عهد السيرة الرومانية -بعيدا عن الجيش الثالث- كانت نوميديا بلد المحراث والبساتين. بساتين الزيتون بنوع خاص. فقد كانت افريقية الرومان اكبر مصدر للزيت في عهد الإمبراطورية. وقد عثر علماء الآثار على بقايا قرب الزيت الإفريقي موزعة عبر العالم المتوسطي. وأصبحت الملكية الزراعية معتمدة بالدرجة الأولى. فالفلاح الصغير الذي يملك حقله يجد في تنويع إنتاجه ولا ينسى أن يستهلك منه القسط الأوفر لأنه يفكر برفاهيته قبل كل شيء. وقد لفتت الثورات الزراعية في أوروبا أنظار الاقتصاديين لهذه الناحية.

وأضحت نوميديا بلدا يقطنه ارستقراطيون من لاتين وأشباههم يعيشون على استغلال الفلاحين. وكان هناك فارق كبير في مستوى المعيشة بين طبقة الارستقراطيين وطبقة الفلاحين. على انه ليس بالفارق الوحيد. فهناك فارق عرقي أو لغوي بالأحرى. إذ ظلت الطبقة الشعبية محافظة على اللغات القديمة من بونية أو بربرية. وهو أمر لا تصعب ملاحظته لان هذا الموقف الخطر أدى لتفجر الدوناتية في القرن الرابع. أنها ظاهرة مهمة تساعدنا على فهم التطور الذي لحق بنوميديا. لقد كان انفجارا دينيا ليس بحثه من شأننا.

فوراء مظاهر التمجيد الدينية، يوجد شيء انسني ارضي، إلا وهي الكراهية بين الطبقات والأعراق. أنها ثورة الطبقة الشعبية، فقد كان المنتمون إليها يكرهون الأسياد والأغنياء، فإذا شاهدوا سيدا فوق عربته يحيط به العبيد عمدوا لإنزاله واصعدوا العبيد

إلى العربة مكانه وأرغموه على السير على قدميه. ويفاخرون بأنهم دعاة المساواة على الأرض ويدعون العبيد إلى الحرية.

تلك هي الثورة الاجتماعية التي قام بها الشعب ضد الإمبراطورية الرومانية. على أن الدوناتية ليست هي التي قضت على الإمبراطورية وإن ساهمت في زعزعتها. ولسنا هنا بصدد بحث أسباب سقوط الإمبراطورية الرومانية، وجل ما في الأمر أننا تكلمنا على الدوناتية بغية إلقاء الضوء على ارض نوميديا وظروفها الاقتصادية في العهد الروماني.

وكما جرت العادة في المغرب كان من الضروري أن تقوم سلطة أجنبية جديدة لتطرد السلطة الأجنبية التي سبقتها.

وجاء دور الونداليين هذه المرة. لكن افريقية في عهد هؤلاء لم تعرف المؤرخين. والقديس اغسطنيوس مصدر معلوماتنا الوحيد عن الدوناتية مات أثناء حصار الونداليين لهيبون.

وكل ما نعلمه علم اليقين أن تحولا عظيما قد لحق بنوميديا زمن السيطرة الوندالية. فجميع المدن الرومانية أو أكثريتها الساحقة قد دمرت تماما ولم يعثر على أثارها إلا بعد عشر قرنا، وكانت أثارا عظيمة. ولكن لماذا لم تستقر الحياة كما كانت عليه في نوميديا؟ مرد ذلك للصراع بين مفهومين اقتصاديين: المراعي والزراعة. ذلك أن الزراعة قد ضعفت تماما في عهد السيطرة الجديدة وأصبحت المراعي تشكل المورد الاقتصادي الأول. وإذا بنوميديا تتحول -كما نلمح من خلال بروكوب- إلى موطن للقبائل البربرية الكبرى الملتفة حول أمراء أقوياء. نذكر منهم يبداس الذي كان حاكمت للأوراس على ما يبدو، واورتياس الذي حكم هدنة، والاثنان من أسلاف كسيلة والكاهنة. ولكن ما الذي تميزت به القبائل البربرية في ذلك الحين؟ هنا أيضا تكمن الصعوبة.

## بلاد الشاوية في الوقت الحاضر

ظهور قبائل الجمالين يشكل ظاهرة اجتماعية جديدة للحياة في نوميديا كما رأينا. ولكننا لا نعثر فيها اليوم على هؤلاء الرعاة.

واسم الشاوية مقرون بالخراف. والخراف والماعز حيوانات عنيت الشاوية فعلا بتربيتها. وإذا كانت هذه المواشي ترعى في السهول شتاء فإنها تنتقل إلى الجبال صيفا بحثا عن الكلأ. وليس الشاوية بدوا بكل ما للكلمة ممن معنى بل هم اقرب لقاطني الجبال الأوروبيين.





وتتأرجح حياتهم بين السهل والجبل على مسافة محددة. كما يتجلى ذلك في مكان سكنهم. فهم يقيمون في الخيام (الشبيهة بالزناتية والعربي) صيفا، كما أن أهم قراهم التي تشابه القرى الزناتية والعربية لأنها اقرب لمخازن تبقى خاوية شهورا طويلة، ويودع فيها الشاوية متاعهم ومؤونتهم التي يعجزون عن نقلها إلى أعلى الجبل حينما يقصدون إليه. وقراهم شديدة الشبه بقرى القبائل من حيث هندستها، فبيوتها صغيرة متراصة ما كان أهلها ليبقوا عليها لولا أنها أمكنة حصينة يسهل الذود عنها. ولا تعرف هذه المنازل أي طابع مدني. غير أن ما يفرقها عن بيوت القبائل عدم وجود الآجر في سطوحها بل هي ذات سقوف من التراب على غرار البيوت الصحراوية، سقوف مهددة بالسقوط دائما تحت عبء الثلوج لهذا يعني الأهالي بجرفها عند الاقتضاء. ونظام السطوح طراز هندوسي قادم من الجنوب من الشرق بتأثير الزناتة.

لكن أكثر ما تحذره الشاوية سواء في الجنوبي أو الشمال هو البدو جوي والعربي. وعلى ذلك دليل واضح في حفاظها على اللغة البربرية في الوقت الذي انتشرت فيه العربية في أنحاء المغرب. وإذا كان الزناتيون أو العرب قد اثروا كثيرا في تلك البلاد فإنهم لم يستطيعوا طبع الشاوية بطابعهم نظرا لمناعة جبالهم.

وهكذا يكون ابن الشاوية نوميديا أصيلا لا يمكن اعتباره من الرحل،وهو أمر ذو دلالة كبيرة. لان الرحل هم الذين صنعوا تاريخ سائر المغرب وكونوا السلالات والأسر الحاكمة والجيوش المقاتلة. ذلك لم يكن شأن الشاوية أبدا. وليس مرد ذلك لضعف أبنائها عسكريا فلهؤلاء مزايا مشهودة في الحرب، لكن هذه القبيلة لم يستطع أن تجمع شتاتها الموزعة في القرى المقفلة لتكون كتلة محاربة.

ولمراكش أيضا قرويوها وهم قبيلة الزناغة التي لا يزال أبناؤها حتى اليوم يحملون الطابع البربري. وهؤلاء أيضا لم يتمكنوا من تأسيس أسرة حاكمة ذات شأن.

والأوراس في الجزائر من ابعد المناطق تأثرا بالحياة العصرية وهي أشبه ببقعة منعزلة.

وجملة القول أن بلاد الشاوية لم تكن في الواجهة أبدا ما عدا جزءا واحدا منها.

## الأوراس في القرن السابع

مجال الافتراض هنا كبير. فالطبقة الشعبية الزراعية المنتمية للفرقة الدينية الدوناتية لم تزل من الوجود. وإذا خفت مطالباتها فلأنها استجيبت غير أنها حافظت على طبيعتها الثورية العنيفة إلى جانب تأثراتها الرومانية والمسيحية. ولعلها فقدت

من عنفوانها دون أن تفقد سمعتها المميزة بعد أن أصبحت مالكة لحقول الزيتون الشاسعة.

وهكذا تحولت هذه الطبقة الشعبية نحو اتجاهات أخرى وبدأت تنتظم في قبائل وتنضوي تحت حكم أمراء أقوياء وليس من المستبعد أم يكون هذا التحول مفاجئا لان الفوضى تقود إلى الديكتاتورية وهذه حقيقة يعرفها الناس منذ أرسطو وكان لنوميديا القديمة جيران شديدو البأس ساهموا في نقل نظامهم إليها سواء عن طريق مباشرة أم غير مباشرة

ولو نظرنا من خلال بروكوب لحملات الجيش البيزنطي في القرن السادس لوجدنا أن نوميديا نوعين من الأعداء سكان الأوراس أي قبيلة يبداس التي تعقبها البيزنطيون حتى أعالي الجبال. هذا من جهة ثم القبائل الصحراوية والطرابلسية في جنوبي تونس وشرقها وهي تحت سلطة أمراء بربر آخرين من أمثال انطلاس وكتزناس وكذلك قبيلة لواتة التي اعتمدت الجمل في الحرب وقصدت بعد هزيمتها إلى الصحراء لتعيد تنظيم صفوفها. وأحرز سليمان القائد البيزنطي نصرا حاسما ضد يبداس وأتباعه الأوراسيين، في حين قتل في معركة خاضها ضد بني لواتة هناك إذن فئتان من البربر كانت تتنازع فيما بينها بتحريض من البيزنطيين، إحداهما فئة الزناتة الجمالين الكبار.

ويمكن تحديد مواقع الزناتيين شرقي الأوراس وجنوبها. لقد بدأ زحف زناتة ببطء ويبدو أنها لن تبلغ في القرنين السادس والسابع ابعد من أعالي الأوراس.

ولو صح هذا الافتراض لامكن اعتبار نوميديا القديمة نقطة خطيرة من المغرب. وليس ذلك لأنها عرفت في عهد السيطرة الرومانية حشدا كبيرا من البشر والثروات، بل لان طلائع الزناتيين قد وصلوا إليها.

ليس هذا سوى محض افتراض على كل حال لكنه يتفق مع التقسيم الاثنوغرافي الذي أتى به ماسكوراي عن الأوراس. وفي الأوراس الشرقي -وهو أكثر انفتاحا على الخارج- يطلق السكان على أنفسهم اسم ولد جنة، وجنة هو الجد الذي تنتسب إليه الزناتة.

أما سكان الأوراس الغربي فهم مختلفون ولا ينتسبون لجنة وليس لهم سوى علاقات بسيطة مع جيرانهم الشرقيين ويعتبر هؤلاء النموذج الأول لسكان الجبال بين الشاوية. وفي موطن هؤلاء نجح مسكوراي في البحث عن الذكريات الرومانية.

ويتفق افتراضنا هذا ورواية ابن خلدون حين يحدثنا عن الاصطدام الكبير بين الفاتحين





العرب وأمراء البربر حول الأوراس. وكل ما ذكرناه يدل -حسب رأي ابن خلدون- أن طائفتين من القبائل كانت تقطنان الأوراس في القرن السابع وهما طائفة الزناتة -البتر من جهة والبرانس من جهة أخرى.

## الاصطدام الحاسم

رأينا أن كسيلة والكاهنة كانا طليعة زعماء المقاومة البربرية للفتح العربي. وقد استطاعا السيطرة على بلاد المغرب لسنين طويلة. ويصل بينهما وبين أسلافهما الذين ذكرهم بروكوب وكوريبوس ما ينيف على القرن. ونحن لا نعرف شيئا عن عالم البربر من سنة 550 وحتى عهد كسيلة.

حتى أن كسيلة والكاهنة نفسهما ليس لهما تاريخ واف. فذكراهما ظلت مبهمة في فولكلور الأوراس وتحدث عنهما كتاب العداني لذي نشره فيرو. كما تعقب ماسكوراي آثارهما عبر الأساطير والأشخاص الخياليين ليتسنى له استخراج حقيقتهما. وكان اسماهما معروفين ابعد من الأوراس في السودان وبلاد طوارق افوراس جنوبي تونسي وفي تلك المنطقة بقايا قصر يدعى بقصر كسيلاته. ويظن الطوارق هناك أن كسيلة كان امرأة لان اسمه مقرون باسم الكاهنة.

وكان كسيلة والكاهنة من الوثنيين لذلك لم يعطف عليهما المؤرخون المسلمون. لكنهم اتفقوا على سرد اخبرهم فوردت متشابهة إلى حد ما لدى كل من ابن عبد الحكم والنويري وابن خلدون والبيان وابن الأثير.

## كسيلة

خلفت الكاهنة كسيلة لكنهما لا ينتميان لقبيلة واحدة. فكسيلة من بني أوربة الذين يرجعهم ابن خلدون إلى البرانس . ويؤكد أنهم ينتمون للبرانس منذ أكثر من ثلاثة وسبعين عاما. وقد سبق لنا أن اشرنا لأهمية التمييز بين البرانس والبتر.

ويقول ابن خلدون أن سكردید الرومي كان مساعدا لكسيلة وكلاهما اعتنق النصرانية. ويذكر لنا علاقته "بالفرنجة" أي اللاتين. ومن المرجح أن كسيلة وأتباعه حافظوا على علاقتهم بالمسيحية واللاتينيين.

وتاريخ كسيلة مركز في بلاد الأوراس فقد تمكن من قتل سيدي عقبة بجوار بسكره جنوب غربي الأوراس. وفي الشرق بين القيروان والأوراس فقد عرشه وحياته.

ويؤكد مسكوراي أن بلاد الأوراس الغربية كانت على صلة مع بني أوربة وكسيلة، أما ابن خلدون فلا يشدد على وجود هذه القبيلة في الأوراس أو أي مكان آخر فالدقة في هذا المجال كانت تعوزه.

ويبدو من خلال روايته أن كسيلة وبني أوربة كانوا على صلة بالأوراس وبالتل الوهراني وبمنطقة تلمسان وحتى مر تازة. وقد سبق لأبي المهاجر سلف سيدي عقبة أن سجن كسيلة عند "ينابيع تلمسان". وبعد انتصار العرب طاردوا بني أوربة حتى مولوية فعاش من بقي منهم في فلبيلس.

ليس هذا الأمر جديدا أو مدهشا على كل حال، فقد كان الأمراء النوميديون أمثال صفاقس ومسيناسا وجوغرتا يتنقلون بين الأوراس ومولوية. وقد نزل سيلا في رشقون مرفأ تلمسان حين كان في طريقه لزيارة صفاقس. فالهضاب العالية التي تفصل الأوراس مولوية كانت على الدوام رابطا طبيعيا بينهما.

وجدير بالذكر هنا تلك القبور التي لا تزال أثارها قائمة جنوب غربي تاهرت وهي قبور الجدار، القبيلة البربرية التي عاصرت الاحتلال البيزنطي. ويورد بعض المؤرخين العرب انه قد عثر على كلمات باليونانية للجدار في القرن العاشر تقول: "أنا سليمان السرديقوس. ثار سكان هذه المدينة فأرسلني الملاك إليهم وساعدني الله على قهرهم".

ولا يسهل علينا بالطبع تصديق كتابات كهذه نقلت إلينا من القرن العاشر لاسيما وان المعارك التي قادها سليمان وأوردها بروكوب وقعت في الأوراس. وليس من المستبعد على كل حال أن تكون إحدى الأسر البربرية قد وسعت سيطرتها في الشرق فبلغت الأوراس وحدود افريقية البيزنطية. كما أن الآثار التي بقيت على الجدار قد احتاجت للفن البيزنطي. فهل يصح الاعتقاد بان لكسيلة وبني أوربة صلات بالجدار؟ ليس هذا مستحيلا، غير أنني أعجب من إغفال افتراض كهذا ليس بالطبع مؤكدا.

لكن من المؤكد أن بني أوربة ينتمون للبرانس المتصلين باللاتين والمسيحية. ولعل الانتصار على سيدي عقبة كان انتصارا للبيزنطية أكثر من أي انتصار بربري آخر. لاسيما و؟إنه لفرط أهميته أصبح له صدى كبير في العالم الإسلامي، وقد أعطى المؤرخون العرب عن كسيلة صورة حية.

ألقى عقبة أمير الجيش العربي وعامل الخليفة القبض على كسيلة واقتاده معه في دورته عبر بلاد المغرب وأساء معاملته كثيرا؛ ويروى عن تلك المعاملة أن القائد العربي أمر كسيلة بذبح خروف قدم له هدية فأجاب كسيلة بقوله: أصلح الله الأمير كيف





لي أن اذبحه ولدي الكثير من الأصحاب والأعوان الذين يستطيعون القيام بهذه المهمة. فشتمه عقبة، فانسحب كسيلة غاضبا وذبح الخروف ومر بيديه الداميتين على لحيته. فاقترب منه بعض الرجال العرب وسألوه: ما تفعله أيها البربري؟ فأجاب: هذا مفيد للحية. وسمع شيخ عربي كلامه فقال، ليس هذا من اجل لحيته لكنه تهديد من جانب البربري. قد تكون القصة منحولة، لكنة العثور على هذه الحيوية لدى مؤرخ عربي من الأمور السارة.

ونفذ كسيلة وعيده هذا سواء كان منحولا أم صحيحا. فقد فاجأ عقبة على سفح الأوراس بجوار بسكره واحة تهودة. وأيقن عقبة انه ميت لا محالة فصاح: إنني تواق للشهادة، وصلى ركعتين وكسر غمد سيفه وامكر فرسانه بالنزول أرضا والمحاربة حتى الموت فحاربوا ولم ينج منهم احد. كان ذلك سنة 63 للهجرة (682-83) وفي تهودة اليوم ترتفع قبة تذكارية يقصدها السياح القادمون من بسكره.

ويقول النويري: وزحف كسيلة على رأس جيش كبير على القيروان فاحتلها واحتل افريقية وأصبح كما وصفه البيان سيد افريقية والمغرب بأسره.

واستمر حكمه طيلة أربع سنوات أو خمس. حتى جاء القائد العربي زهير سنة 67 للهجرة (686-87) ليقود المعركة ضده قرب القيروان. وكانت نزال رهيب مني فيه الطرفان بخسائر جسيمة وانتهت المعركة بمصرع كسيلة. ويؤكد المؤرخون العرب أنها كانت المعركة النهائية لان الجيش العربي تعقب البربر بعيدا. ويصعب علينا تصديق ذلك لان هؤلاء المؤرخين أنفسهم يذكرون أن العرب اضطروا مرة أخرى للانسحاب من افريقية وان زهير قتل في طرابلس أثناء انسحابه.

## الكاهنة

بوفاة كسيلة انتقلت الزعامة لقبيلة أوراسية أخرى هي قبيلة جراوة التي كانت مسيطرة على الأوراس الشرقي. وحافظ المغرب على النوميديين كرؤساء له، حتى أن جراوة اعرق في اوراسيتها من أوربة.

يحدد ابن خلدون مواقع الجراوة في الأوراس. لكن هذه القبيلة ليست من نوع أوربة إذ أنها لا تنتمي للبرانس بل إلى البتر الزناتيين. ويدعو سكان الأوراس الشرقيون أنفسهم حتى اليوم بأبناء جنة أي رديف الزناتة. وبنو جراوة ليسوا كذلك من النصارى كبني أوربة وإنما هم يهود. كما أنهم جمالون رحل ليس لهم صلات بالمغرب اللاتيني وقد أموا البلاد من الخارج وأصبحوا أسيادا لها.

وتتزعم هؤلاء أمراء تدعى الكاهنة. ولزعامة المرأة في المجتمع البربري مدلول مقدس. فهي تعني بالسحر. ويقول ابن خلدون: قبيلة جراوة من البربر اليهود الذين استوطنوا الأوراس واليهم تنتمي الكاهنة. وهي امرأة بارزة عنيت بالخوارق وكان لها شأن كبير.

سنة 69 للهجرة (688-689) قام حسان ابن النعمان الغساني حاكم مصر بمهاجمة الكاهنة وتمركز على الشاطئ نهر مسكيانه شمالي الأوراس. وقادت الكاهنة جيشها لمجابهة المسلمين وقاتلتهم بعناد وحملتهم على التراجع بعد أن قتلت منهم الكثيرين... ولم تضع فرصة في مطاردتهم ونجحت في إقصائهم إلى خارج منطقة قابس وأرغمت قائدهم على اللجوء لمنطقة طرابلس. وهناك استطاع حسان الصمود وراء خطوط محصنة دعيت بقصور حسان. وقضت الكاهنة خمس سنوات في السيطرة على افريقية وفي حكم البربر.

وفي عام 74 (693) شن العرب هجوما عنيفا بقيادة حسان نفسه استطاعوا فيه قهر البربر وقتلت الكاهنة نفسها في مكان يدعى اليوم ببئر الكاهنة.

ويورد المؤرخون العرب تواريخ دقيقة لكنها ليست موحدة. إذ تتضارب رواياتهم حول مصرع الكاهنة فيقول ابن الأثير أنها قتلت سنة 74 أو 79 للهجرة. ويقول البيان أن موتها كان عام 82 أما القيرواني فذكر أنها ماتت سنة 84. ولو سلمنا بان مصرع عقبة كان في عام 63، فيمكن القول أن نوميديا قادت المغرب بنجاح طيلة عشر سنوات على الأقل وعشرين سنة على الأكثر وفي ظروف صعبة للغاية. وكسرت ثلاث مرات شوكة الجيش العربي القوي الزاحف من مصر. وهي نتيجة لا يستهان بها.

ولا يذكر المؤرخون الغرب -بجفافهم المعتاد وعدم اهتمامهم بتحليل الأسباب- عن ذلك الشيء الكثير، غير أنهم أتوا ببعض التفاصيل التي تلقي ضوءا على الوضع.

حين قدم عقبة إلى الأوراس وجد أن الروم وسكان البلاد قد إلتجأوا لمدينتي باغاي ولمبيز المحصنتين، وتمكن من متابعة زحفه بعد مناوشات لم تكن كلها ناجحة.

وفي مسيرته غربا باتجاه تاهرت خاض معركة ضد الروم والبربر ولم يتمكن هؤلاء من مقاومة المسلمين.

وفي طنجة طلب عقبة إلى حليفه الجديد يوليان أن يرشده إلى المكان الذي يستطيع فيه العثور على زعماء الروم والبربر. وحين عودته اقترب عقبة بجيشه الذي تضاءل من تهودة فقرر الروم أن يوقعوا بع فاقفلوا أبواب مدينتهم وأمطروه بوابل من الأسهم





والحجارة في حين كان يدعوهم للإيمان بالله وما إن وصل إلى قلب البلاد حتى استنجد الروم بكسيلة.

تلك تفاصيل أوردها النويري، لكن جميع المؤلفين يجمعون على الربط بين البيزنطيين والملوك النوميديين.

وفي المعركة التي قتل فيها زهير كسيلة "كان عليه أن يواجه جيشا من البربر والروم". "وبعد انتصار المسلمين في المعركة بقي عليهم أن يتعقبوا الروم والبربر وقتل في المعركة خيرة جنود المشركين".

وحين قتل زهير وهو يتراجع في المنطقة الطرابلسية لم يكن البربر هم الذين قتلوه وإنما الروم الذين استعانوا بأسطول منظم، أي البيزنطيين المتعاونين مع البربر. ويقول البيان إن الروم انتهزوا الفرصة حين علموا بتوجه زهير من افريقية نحو برقة.

وكان للكاهنة كما يقول البيان، ولدان واحد بربري والثاني إغريقي. وهو أمر يسهل تفسيره. فقد كان للبيزنطيين حتى ذلك الوقت كتائب مبعثرة في الحصون التي لم يستطع العرب اقتحامها. وظلت وسائل الاتصال حرة بين قرطاجة وبيزنطة. وكانت المدن لا تزال بيزنطية قلبا وقالبا. فعمدت بيزنطة لتمويل البربر وتسليحهم مع إسداء النصيحة لهم. وهكذا صادف العرب في بلاد المغرب شبكة مقاومة تضم اللاتين والبربر من رحل وحضر. ولكي يستطيع حسان مجابهة الموقف احتل قرطاجة لكن النجاح لم يكتب له لان الكاهنة انتصرت عليه واضطرته للانسحاب من افريقية. لقد كان الإغريق والرومان مجرد حلفاء أما إدارة البلاد فكانت في يد الملك النوميدين القائد العسكري الوحيد. لقد حقق كسيلة والكاهن حلم مسيناسا ذلك الحلم الذي تطلع الرومان إليه بعد تدمير قرطاجة البونية. لقد كانا في الواقع ملكين على قرطاجة يقودان الجيش النوميدي وما تبقى من الجيش البيزنطي يؤازرهما سكان المدن. وهذا سبب قوتهما. فلقد تمكنا من تحقيق وحدة المغرب لفترة من الزمن قصيرة.

هناك ظاهرة مشابهة نجدها في تاريخنا الأوربي. فقد كون الفرنجة فرنسا بالتعاون مع رجال الدين الغاليين والرومان استنادا لتأييد البلاد. وهكذا استطاعت فرنسا الصمود في وجه الغزاة الجرمانيين. وقد توصل المغرب لنتيجة مماثلة ولكن نجاحه كان مؤقتا.

## عامل الانهيار

يمكننا أن نفهم ما جرى من خلال المؤرخين العرب، واهم ملاحظة أتوا بها هي أن الجراوة كانوا من البتر. ويقول ابن الأثير: إن الكاهنة حين أصبحت سيدة على كل افريقية، أساءت إدارة البلاد وارتكبت الفظائع والمظالم.

وقد كتب احد المبعوثين لحسان يقول له: البرابرة متفرقون الآن فأسرع بالمجئ. وقام حسان بحملته الثانية الناجحة.

ويضيف ابن الأثير أن كثيرا من الروم استعانوا بحسان على الكاهنة ولقيت طلباتهم في نفسه وقعا حسنا.

ويقول ابن خلدون في نفس المعنى: تخلى البربر عن الكاهنة ليقدموا خضوعهم لحسان واستفاد القائد العربي من هذا الموقف وتمكن من إخضاع الفئات الباقية التي ظلت على ولائها للكاهنة.

وبدون أن يدلي المؤرخون باسم المعركة أعطوا عنها العديد من التفاصيل.

عشية المعركة أخبرت الكاهنة ولديها وخالدا العبسي أنها "مقتولة لا محالة، وكأنها ترى رأسها يركض به فارس إلى جهة المشرق. فقال لها خالد وابناها: إذا كان الأمر كذلك فاتركي البلد لحسان وارجعي بنا. فقالت كيف افر وأنا ملكة والملوك لا تفر، فأقلد قومي عارا إلى مدى الدهر".

وفي يوم لمعركة "نزلت الكاهنة بنفسها ثائرة ناثرة شعرها، وقاتلت حتى انهزمت".

ويروي البيان أن الكاهنة خاطبت البربر قائلة بأن العرب "إنما يأتون افريقية طمعا في أشجارها وثمارها، ويقصدون المدن طمعا لما فيها من الذهب والفضة، ونحن إنما نريد من افريقية المزارع والمراعي والحيوانات، فإذا ما قطعنا أشجارها وخربنا مدنها وقراها اعرض العرب عن غزوها". وأرسلت عمالا إلى كل ناحية يقطعون الشجر ويحرقون الغابات والأحراش، ويهدمون القرى والمدن حتى أتت على كل ما فيها من عمران، وتركتها خرابا يبابا من طرابلس إلى طنجة، وانعدام العمران الإفريقي كله، فاضطر كثير من البربر والروم إلى الجلاء عن افريقية إلى الأندلس وجزائر البحر الأبيض"...

وقد أثار هذا المقطع الكثير من التعليق، فليس من الممكن أن تحدث الكاهنة وحدها كل هذا الخراب في بلاد المغرب. وهناك كلام لابن خلدون يلقي ضوءا على الخلاف القائم بين النوميديين وحلفائهم سكان المدن: يقول المؤرخ العربي "إن البربر لم يكونوا مرتاحين





لتهديم ممتلكاتهم". ويعني بهؤلاء المزارعين وسكان المدن والحضريين. فلم يلق هؤلاء زمن حكم البتر أي اهتمام لمصالحهم. ذلك هو النزاع الأزلي بين البدو والحضر وهو سبب رئيسي لازدواجية الروح المغربية.

والغريب أن الكاهنة قد ألهبت خيال المؤرخين العرب الذين أعطوا عنها فكرة حية بخلاف عاداتهم في الكتابة. ويقول البيان أن الكاهنة أبقت لديها بعد معركة مسكيانه التي انهزم فيها حسان -"خالدا بن يزيد العبسي ليكون لها واسطة عند العرب وكان وسيم الوجه حسن الطلعة، وقد أرادت أن يكون لها محرما لتتمكن من التحدث إليه كابن لها، وهي له كأم، ولم يكن أمامها ما يحقق هذه الرغبة إلا طريق الرضاع، فقالت له: أريد أن أرضعك لتكون أخا لولدي، فقال لها: كيف يكون ذلك وقد ذهب منك الرضاع؟ فقالت له: أننا جماعة البربر لنا رضاع نتوارث به إذا عملناه، ثم عمدت إلى سويق من دقيق الشعير فلتته بزيت ثم جعلته على ثدييها ثم أمرت ولديها أن يأكلا مع خالد من ذلك الدقيق الملتوت بالزيت، فقالت لهم: "انتم إخوة من الرضاع".

واستدعت خالدا عشية المعركة الأخيرة التي فقدت فيها عرشها وحياتها وطلبت إليه أن يذهب إلى الجانب الآخر بصحبه ولديها.

وبعد موت الكاهنة تمت الأمور على أحسن ما يرام بين الغالب والمغلوب: يقول ابن خلدون "إن حسانا عين ابن الكاهنة البكر قائدا للجراوة وحاكما للأوراس". أما البيان فيعطي رواية لا تناقض الأولى وان اختلفت عنها بعض الشيء: "وطلب البربر الصلح من حسان فاشترط عليهم أن يقدموا له اثني عشر ألفا من المحاربين يكونون في صفوف الجهاد، فرضوا بذلك، وولى عليهم ابن الكاهنة وأرسلهم إلى المغرب للجهاد يقاتلون الروم ومن لم يسلم من البربر".

وقد أعاد التاريخ نفسه في مراكش وفي هذا القرن بالذات حين حارب مها أو همو وهو زعيم قبيلة جبلية في بلاد زيان، حارب الفرنسيين بضراوة، ولما رأى أن لا أمل له بالنجاح، نسج على غرار الكاهنة، حيث انه لم ينضم شخصيا لصفوف الأعداء لكنه أمر أولاده بالانضمام إليهم وحاربوا في معركة قتل فيها أبوهم. بعد ذلك أصبحوا من اشد الناس ولاء وإخلاصا للجنرال بوميرو، حسان الجديد.

وبالتحليل السيكولوجي لهذه الظاهرة يمكننا أن نفهم الأمر حين نجد البربر لا يعرفون شيئا عن الوطن ولا يعيرون أي انتباه خاص لنوميديا وطنهم الصغير أو لبلاد زيان. على أن البربري مستعد لبذل حياته في سبيل عائلته وجماعته. والسؤال الآن: كيف يمكن

الحفاظ على سلامة هذه الجماعة أو تلك العائلة؟ إن كل ظافر مستعد للاستعانة بأبناء البلاد إن هم ابدوا استعدادا للتعاون معه. فحين قالت الكاهنة لوليدها: اذهبا، فبكما سيحافظ البربر على بعض القدرة. كانت تعني بذلك قبيلة جراوة التي تطلعت لإنقاذها عن طريق الخضوع. وإذا كانت هي نفسها عاجزة عن الانضمام لصفوف الأعداء فلا بأس إن أمرت ابنيها بذلك فهذا واجبها المقدس. تماما كما فعل أبناء مها أو همو حين انضموا لصفوف الفرنسيين.

إن هذه الرواية عن الغزو الفرنسي لمراكش تلقى ضوءا على سلوك الكاهنة كما رواه المؤرخون العرب. وما كنا لنصدق ما أتى به هؤلاء لولا أن التاريخ أعاد نفسه في المغرب.

وليس تصرفا كهذا أمرا مستغربا في هذه البلاد. لكننا نستهجنه نحن الذين سرنا منذ ثلاثة آلاف سنة من مفهوم المدينة القديمة إلى مفهوم الوطن. وما تصرف الكاهنة ومهما أو همو سوى رد فعل طبيعي لذهنية سياسية لن تتعد المفهوم القبلي.

وتصرف الكاهنة بربري بشكل عام وبتري بنوع خاص. فقد تبنت ابنا عربيا ليقوم بدور فعال في مأساة أيامها الأخيرة. فهو الذي سلم القائد العربي ابني الكاهنة الأصليين. ونلاحظ في مجمل تاريخ المغرب تجاوبا واضحا بين البرابرة البدو والعرب. فبين الشعبين تشابه في نمط الحياة وطبيعة المشاعر، وهذا ما يجعل فارق اللغة عاجزا عن خلق الانفصال بينهما. وأسطورة الكاهنة مثال حي على ذلك. في الوقت الذي كان فيه الحضريون يقدرون مزايا الخلافة والحكومة النظامية والإدارة والنظام والحفاظ على المكلفين وسائر العناصر اللازمة للحياة المدنية.

وهكذا تم الطلاق بين الأمراء النوميديين ورعاياهم المدنيين. ولم يحاول البدو والحضر في المغرب أن يتعايشوا فيما بينهم قط. وهكذا انتصر الفتح العربي واجتاز حسان العتبة بنجاح. وأصبح بإمكان موسى بن نصير أن يأتي فلا يلاقي سوى بقايا قبائل لا نظام فيها. ولم يقابل بالطبع بخضوع كلي، وكذلك لم يجابه مقاومة ذات بال. فلم لا يمضي بالفتح الإسلامي إلى ما هو ابعد...إلى اسبانية.

ولنلاحظ أن ذلك كان آخر اثر لنوميديا في التاريخ. فلم يعد يعثر عليها في الصف الأول.

ذلك لأنها تحولت تدريجيا فأصبحت بلاد الشاوية. وتبدد ما بقي من ثروات زراعية وفلاحين رومان في القرن السابع. وسادت حياة التنقل بين الجبل والسهل. وتابع الجمالون الرحل الكبار (الزناتة) تقدمهم نحو الغرب ووجدوا في منطقة هدنة والمرتفعات الجبلية





أجواء ملائمة. وما إن استقروا في بلادهم الزناتية تلك حتى سيطروا على الرحل الصغار من قاطني الأوراس وهضبة قسنطينة السهلية. وهكذا تكونت في نفس الإطار الجغرافي بلاد الشاوية هذه التي نتطلع إليها الآن.

# 2 - الخوارج وتمردهم

## فتح اسبانية

بعد حقبة الغزو في عهد كسيلة والكاهنة اختتمت حلقة جديدة في تاريخ الفتح العربي. لقد اخذ العرب بلب افريقية حتى أعماقها. فقد رضي الأفارقة بلا تحفظ بالحكم العربي واللغة العربية والدين الإسلامي.

وإذا كانت القوة لعبت دورها في هذا المجال، فلم تكن في الواقع عامل النجاح الوحيد ذلك أن متحضري افريقية ساروا وراء أحاسيسهم لعميقة حين كانوا بونيين -طيلة ألف سنة- لديهم كل الاستعداد لاعتناق الإسلام. ثم إن هذا المجتمع المنظم قد لمس اليد عجزه عن التفاهم مع البربر جيرانه وأعدائه الطبيعيين لاسيما بعد سيطرة برابرة الشرق القادمين على ظهور جمالهم.

ومنذ ذلك الحين بدأ كل دماغ مفكر وكل محتاج للغة المكتوبة والأدب يميل إلى الإسلام دون تحفظ. تلك ظاهرة مهمة تفسر اعتناق المغرب كله لهذا الدين. ومهما علا شأن البربر من الناحية العسكرية، فلم يكن لهم أي وزن على الصعيد الفكري.

وقفز الفتح العربي في بلاد المغرب قفزه يثير تفسيرها الفضول. فلو كان الفاتح رومانيا أو فرنسيا مثلا لعنى باستتباب الأمن والنظام وتثبيت أقدامه في البلد الجديد. أما الفاتحون العرب فلم يعنوا بذلك. وما إن استتب لهم الأمر في افريقية حتى وثبوا نحو سائر المغرب سالكين الطريق التقليدية في المرتفعات وفي غور تازه، ولا هم سوى أن يسحقوا المقاومة التي يصادفونها في طريقهم وأن يشعروا الناس بقوتهم لتأمين المواصلات لهم. وفجأة عبر الفاتحون العرب مضيق جبل طارق وانقضوا على بلاد الأندلس، مستخدمين تلك القبائل البربرية التي كان من شأنها أن تهددهم من الخلف، ولم يكونوا ليهتموا بتوثيق الصلات معها وإنشاء نظام إداري على الطريقة الغربية.

لقد وجد العرب في اسبانية شبيها لافريقية، ذلك أنها بلاد متحضرة منظمة ومجتمع مستقر حددت فيه اطر الدولة ونظام الجباية فضلا عن توفر أسباب الرفاهية. وكان العرب يميلون لفتح البلدان المستقرة ولهذا استولوا في الشرق على سورية وبلاد ما بين النهرين ومصر.

وقد تحدثنا آنفا عما ذكره ابن خلدون بشأن الحضارات القديمة في مصر وبلاد الكلدانيين التي غزاها لعرب. ورأينا أن بلادا كهذه معدة سلفا للخضوع وليست منفتحة على الثورة والتمرد. ولم يشأ العرب تنظيم البداوة لأنهم لو فعلوا ذلك فقدت هذه فعاليتها؛ فكيف يفتحون الأندلس لو قضوا على بداوة البربر؟

هكذا استطاع العرب أن يقفزوا من افريقية ليحتلوا الأندلس. ولسنا هنا بصدد الحديث عن الفتح الأندلس. وقد سبق لنا أن قلنا إن الفتح العربي قد صادف استعدادا طيبا، لقبوله لدى جميع البلدان التي تأثرت بقرطاجة وفينيقية من قبلها.

كتب "دوزي" تاريخ الأندلس في العهد العربي، وألقى ضوءا على ظروف استعراب هذه البلاد وكذلك بلاد افريقية.

لم يكن الحاجز بين اسبانية والإسلام بمثل سماكته بين سائر الغرب ودين المسلمين. ومن اسبانية تسربت إلينا بعض الأفكار والمعارف العربية. فاللغة اللاتينية أو الرومانية على الأقل كانت تعاصر العربية. وكان الأندلسي مزدوج اللغة إلى حد ما.

ويقول دوزي أن الأندلسي كان يحتقر الأدب اللاتيني في حين كان شغوفا بالأدب العربي.

قد يبدو الأمر مستغربا بالنسبة إلينا معشر الغربيين الذين أهملنا الأدب العربي باستثناء رواية ألف ليلة وليلة. أما الأندلسي فلم يكن شغوفا بهذه القصة بل بالشعر العربي. وهناك الكثيرون من المستشرقين المعجبين إعجابا شديدا بالمعلقات وسحرها، وما تغنت به من خيل وحب وحسان وخمرة (كان ذلك قبل الإسلام). ذلك ما كان يثير حماسة الأندلسي.

ثم إن اللاتينية كانت ميتة والاسبانية لم تنشأ بعد، في حين كانت العربية في أوج حياتها.

ومهما يكن من أمر فان هناك حقيقة واقعة: لقد باع الأندلسي كل الأدب اللاتيني من اجل القصائد العربية. وهي سلاح ماض يخلب الألباب.

وهكذا كان المغرب في العصر الوسيط الأول محاطا بمركزين حضاريين إسلاميين يبعد واحدهما عن الآخر. وهما القيروان وسائر مدن افريقية القديمة من جهة، وقرطبة وسائر مدن الأندلس من جهة ثانية.

وبين هذين المركزين طوائف من القبائل المشتتة التي لا يمكن أن تستمر على ما هي





عليه. حتى جاءت ثورة الخوارج الخليقة بان ندرسها لما كان لها من اثر عظيم على تطور تاريخ فرنسا.

## الخوارج

تحتل معركة بواتين التي قضى فيها شارل مارتيل على الجيش العربي عام 732 مكانا مشرفا في التاريخ الفرنسي بينما يذكرها المؤرخون العرب باقتضاب. فقد ورد في البيان: "استشهد في المعركة حاكم اسبانية عبد الرحمن مع عدد من أتباعه". وأورد ابن الأثير أن "عبد الرحمن قام بحملة جديدة على بلاد الفرنجة استشهد فيها مع أتباعه." فهو حدث لا أهمية له، وهم على حق في ذلك إلى حد ما. ذلك أن الفاتح العربي قد مني بهزائم مشابهة في أماكن أخرى لكنها لم توقف زحفه حيث كان مستعدا لجولة أخرى، لكن جولاته توقفت هذه المرة. يقول كتاب تاريخ فرنسا الذي وضعه لافيس: "إن المنازعات الدينية بعيد معركة بواتييه قد خضت شعوب المغرب التي اعتنقت الإسلام. فانتفضت في عام 740 وأهملت حملات الفتح الجديدة." وحركة التمرد الجديدة التي بلغت أصداؤها بلادنا هي ثورة الخوارج التي احتلت مكانا مرموقا في تاريخ بلاد المغرب.

ومذهب الخوارج هرطقة يسهل تحديد مكانها وتاريخها وظروف نشوئها لكن هذه التفاصيل لا تفيدنا كثيرا.

ولكي نفهم مذهب الخوارج ينبغي إلا نعزله عن غيره لا بل يجب أن نقربه من الثورات الأخرى التي عرفها المغرب حيث نجد وراء الهيجان الديني انتفاضة للمشاعر الطبقية والعرقية. والخارجية أشبه بهرطقة مسيحية هي الدوناتية. وقد ولدت في عصر كان فيه كل شيء مطبوعا بالطابع الديني. وقد شدد ماسكوراي على وجود الشبه بين الدوناتية والخارجية.

فلهذين المذهبين من الناحية اللاهوتية نقاط شبه عديدة.

فما الذي كان في أساس الدوناتية؟ هل هو اختلاف في العقيدة؟ كلا بالطبع وحقيقة الأمر أن صراعا نشأ بين طبقتين من رجال الدين تشكك واحدتهما بشرعية الأخرى. فقد رفض أتباع "دونات"، أسقف المناطق السوداء في نوميديا، الاعتراف بشرعية انتخاب صقليان أسقفا على قرطاجة.

ويعتبر دونات أن صقليان انتخب من قبل جماعة من الكهنة سلمت الكتب والأواني المقدسة للسلطات الإمبراطورية في عهد اضطهاد ديقلوسيان. هذا هو السبب

الأساسي، ولم تثر أية مشكلة عقائدية. أنها صدام بين أشخاص. الدوناتيون يرفضون الاعتراف بسلطة كهنة دون المستوى. وانطلاقا من هذه المسألة البسيطة قامت الحرب الدينية التي هزت نوميديا في القرن الرابع. فالدوناتية ليست هرطقة إذن وإنما هي حركة انشقاق.

والمذهب الخارجي شبيه للدوناتية. ففي سنة 656 نشب خلاف على الخلافة بين علي صهر النبي وبين منافسه معاوية. وقد خدع علي وقتئذ بقبول التحكيم بينه وبين خصمه فتخلى عنه نحو اثني عشر ألفا من جنوده. هؤلاء هم الخوارج. وهنا أيضا نلاحظ الخلاف بين الأشخاص، الصراع بين الأساقفة. ومنذ 656 رفض الخوارج الاعتراف بشرعية حكم معاوية وخلفائه وانقطعوا عن الاهتمام بسلالة علي. وأصبح لهم- كما يقولون- خلفاء خاصون بهم هم أئمة الخوارج.

وهكذا نلاحظ أن حركات الهرطقة كبدعة اريوس والزندقة مختلفة كل الاختلاف. فالهراطقة المسيحيون جادلوا في ألوهية المسيح وناسوته وفي وحدة المطلق وثنويته. ولا حاجة بنا للقول أن بين المذهبين البروتستنتي والكاثوليكي فوارق عميقة في العقيدة.

وقد عرف الإسلام بدوره في الشرق هرطقات حقيقية جادلت في جوهر العقيدة. أما في المغرب فلا. سواء في المغرب المسيحي أم في المغرب المسلم. وجميع الخلافات التي وقعت لم يكن للاهوت شأن فيها. ففي المغرب فقر في الأفكار أو إهمال لها إلى جانب تعلق شديد بالأشخاص. وفيه أيضا روح التشدد والتمسك بالحزبية، وكذلك التطرف والإصرار على حصر المطلق في أمور فرعية بسيطة وذلك بعناد كلي لا يقبل أي تنازل أو اخذ ورد. وهي ظاهرة عرفت عند الدوناتية كما عرفت عند الخوارج.

وبوسعنا أن نطلع على مدى التعصب الديني الدوناتيين في مبدأ الانتحار الجماعي المعروف لديهم. "فهم يقتلون أنفسهم بسهولة لا تصدق، حتى يبلغوا الشهادة ويصعدوا إلى السماء كما يظنون. غير أنهم يخشون مغبة قتل النفس أحيانا فيرغمون أول قادم على ضربهم ليبلغوا بذلك الشهادة دون الوقوع في خطيئة الانتحار. والويل للمسافر الذي يرفض الأقدام على قتلهم. فسيكون مصيره الهلاك لا محالة"

والخوارج متعطشون بدورهم للاستشهاد لكنهم لا يذهبون إلى حد الانتحار. بل يكتفون بشن المعارك الشديدة من اجل عقيدتهم. لكن التضحية بالنفس سهلة جدا لديهم. ويقول المتطرفون منهم (الصفرية) بأعمال مخيفة.





ونرى عند الخوارج المعتدلين (الإباضية) هذا الميل لشظف العيش والرغبة المطلقة في نكران الذات كليا أمام الله.

فماسكوري سكوراي على حق إذن في ذكر الشبه بين الخوارج والدوناتية. لا بل إن الخارجية هي الدوناتية عينها منقولة من الإطار المسيحي إلى الإطار الإسلامي. على أن الظروف الزمنية لا تغير في جور ظاهرة واحدة عند الجماعتين هي طريقة الإحساس بالذات الإلهية.

ولا حاجة بنا كما أظن لمعرفة المزيد عن الخوارج من الناحية الدينية. لاسيما وان الناحية الدينية لا تهمنا بقدر ما نولي انتباهنا للناحية الإنسانية والمشاعر العلمانية التي تبدو لنا واضحة فور إزاحة الستار الديني.

وقد سبقت لنا محاولة استخلاص المضمون السياسي والاجتماعي للدوناتية. فليس صعبا أن نفعل الشيء نفسه بالنسبة للمذهب الخارجي.

يحدد ابن خلدون بما له من بعد نظر الأسباب العميقة لانتفاضة الخوارج فيقول:"انتشر مذهب الخوارج بسرعة في أنحاء البلاد وقد أصبح لدى المنشقين سلاحا ماضيا للهجوم على السلطة". ويعني بالسلطة، سلطة الخلافة بالطبع ممثلة بشخص الأمير الحاكم. "وجند المغامرون الخوارج أنصارهم من البربر المنتمين للطبقة الشعبية".

أنها ثورة بربرية ديمقراطية ذات محتوى سياسي واجتماعي، هكذا كانت الدوناتية تقريبا. لأنها ثورة الجماهير الشعبية. غير أن هذه الجماهير ليست عينها بين الخوارج والدوناتيين عدة قرون. على أن مبدأ التقشف وحرمان الذات من العناصر التي تجمع بين هاتين الطائفتين. ولا شك أن وراء هذا أطماعه خفية لا تهدأ.

وإنها أيضا انتفاضة البربري الأصيل ضد الدخلاء، وليس الدخيل هذه المرة حكم اللاتين وإنما حكم الخلافة القادم من المشرق.

يبقى أن نحدد أصول هؤلاء الثوار الخوارج إذ لا تكفي نسبتهم إلى البربر بشكل عام لجلاء الأمور.

## الخوارج من زناتة

أين كان مركز الثورة، وأين القبيلة أو مجموعة القبائل التي رفعت رايتها فوق نوميديا بعد سقوط كسيلة والكاهنة؟ يبدو لي أن الإجابة على هذا السؤال أمر ممكن.

المؤرخون العرب كعادتهم أوجزوا القول وكانت كتاباتهم جافة. غير أنهم متفقون حول الوقائع، الأمر الذي يمكننا من الوصول إلى نتيجة.

اندلعت الثورة في طنجة خلف الجيش العربي الذي فتح اسبانية. واتسع نطاق المعارك بعد ذلك على طول الخط الذي يصل بين القيروان وطنجة. ووقعت معركة كبرى "معركة النبلاء" على نهر شلف. ثم وقعت معركة كبرى ثانية قتل فيها كلثوم بمنطقة السبع. وفي الثالثة ثأر العرب لنفسهم في القرن بجوار القيروان سنة 742. أما الواقعة الحربية الرابعة فنشبت ناحية الشرق حين استولى الخوارج على طرابلس. وحصل رد عربي عنيف بقيادة عبد الرحمن بن حبيب. على أن الأحداث البارزة وقعت كلها حول طرابلس وتونس وتلمسان بين 743 و752. ومن 757 إلى 758 كانت القيروان فريسة الحريق. فقد استولى عليها الخوارج من بني ورفجومة ثم استولى عليها خوارج آخر. وكان رد الفعل العربي بقيادة محمد بن الأشعث الذي انتصر في سرت بالمنطقة الطرابلسية واسترجاع مدينة القيروان. لكن حملته فشلت في تلمسان، التي أصبحت لوقت ما مركزا لنشاط أبي قرة اليفرني (765)، بعدها استولى الخوارج على طرابلس، وحاصروا القيروان. ويطيل المؤرخون الحديث عن حصار تبنه في منطقة هدنة حيث حوصر الحاكم العربي عمرو بن حفص وقتا طويلا (770) قبل أن يلقى مصرعه تحت أسوار القيروان. ووقع الرد العربي تحت حكم يزيد غربي القيروان في المنطقة المحيطة بالأوراس في الزاب بتبنه وسكا فنيريا. وكانت نتيجته معاهدة سلام (من 771 إلى 788). وفي عام 801 ظهر اغلب الحاكم العربي الجديد ليؤسس أسرة الاغالبة وفي عهده عرف المغرب نحو مئة سنة من الهدوء النسبي.

لقد ملأت ثورة الخوارج الجزء الأخير من القرن الثامن الميلادي. ولم نتطرق في السطور السابقة لسرد حوادث تلك الفوضى العارمة وإنما سعينا لتحديد مواقع الحروب.

كان ذلك في طنجة وسبع ومنطقة تلمسان وشلف وهدنة وجنوبي تونس والمنطقة الطرابلسية، أي في مختلف السهول والمرتفعات التي تكون بلاد زناتة. لقد كانت هذه البلاد مسرحا لثورات الخوارج ابتداء من طرابلس حتى غور تازة.

ونلاحظ الطابع الزناتي أيضا حين نستعرض الفئات المتنازعة. ولا شك أن عناصر مختلفة قد شاركت في تلك الهزات العنيفة، بعضها مراكشية في بدايتها أثناء الانفجار الأول الذي وقع في طنجة. ويذكر البيان قبيلة برغواطة ويورد ابن خلدون أن احد زعماء هذه القبيلة "احتل مركزا قياديا في جيش ميسرة". ويصنف البيان قبيلة





برغواطة في عداد الخوارج. لكن هؤلاء معروفون حق المعرفة. فقد تركوا دين الإسلام وأسسوا في بلاد الشاوية إمبراطورية ترتكز على دين جديد غير الدين الإسلامي. وكان لهم منحى خاص.

ولا يغربن عن البال أن من الخوارج عناصر شرقية وعربية. واهم حدث في تلك الحقبة وقع سنة 750 حين انهارت خلافة الأمويين في الشرق وقامت خلافة العباسيين في مكانها. وكان لقلاقل الشرق أثرها على بلاد المغرب. فقد حصل نزاع بين الحكام العرب وتحالف بعضهم مع البربر. ومن الخطأ الكلي أن ننسى الصلة التي تجمع بين مشاكل المغرب ومشاكل المشرق. فقد استفاد الخوارج من الخضة التي عرفها الحكم العربي بتغيير السلالة الحاكمة ولم يمنعهم ذلك دون المضي قدما وراء أغراضهم التي لا يصح أن نسميها قومية وإنما نقول أنهم أطاعوا غريزة العرق.

وشهدت منطقة القيروان من حين لآخر تدخل الصنهاجيين والكتاميين أي البرانس.

واستولى الصنهاجيون لفترة ما على بجة الواقعة في تونس حاليا.

وقد أشار ابن خلدون لوجود ألفين من الخوارج الصنهاجيين في عداد ثلاثة عشر جيشا اشتركت في حصار تبنة. وهو عدد ضئيل قياسا على تقدير ابن خلدون حين تورط بإعطاء الأرقام في نفس الصفحة وقال أن عدد المحاربين قد بلغ 350,000 رجل بينهم 35,000 فارس. بعد ذلك لجأ احد زعماء الخوارج ولم يكن صنهاجيا أو كتاميا لجأ إلى كتامة حيث حوصر طيلة ثمانية أشهر. وواضح أن كتامة وصنهاجة قد اشتركتا في حركة التمرد حول منطقة الجبال.

وقد دعي ميسرة أول محرض على العصيان في طنجة بميسرة المضغري.

وقبيلة مضغرة من البتر حسب اعتبار ابن خلدون الذي حدد موقعها في ممر تازة "بالمنطقة الفاصلة بين فاس وتلمسان" وقال أنها تحالفت مع الكومية المستوطنة في وهران وبنو مضغرة هؤلاء الذين انتصروا على كلثوم في معركة سبع الكبرى سنة 741. "كانت رؤوسهم كلها محلوقة وكانوا يطلقون صيحات كتلك التي يطلقها الخوارج في الحرب. وتراجعت مقدمة كلثوم أمام هجومهم الجارف وفقد للقائد حياته ومعركته في ذلك اليوم".

في صفحة 238 من الترجمة الفرنسية لكتاب ابن خلدون بضع المؤلف قبيلة مضغرة وحلفاءها تحت قيادة مسيرة لكنه يناقض نفسه صفحة 217 كما يخالفه

المؤرخون الآخرون. لقد حل خالد بن حميد محل ميسرة على رأس جيش الخوارج. وهو الذي ربح معركة سبع على الأرجح وكذلك معركة شلف التي وقعت قبلها وهي التي دعيت بمعركة النبلاء لان جميع الأبطال والشجعات والفرسان العرب قد ماتوا فيها. ويلقب ابن خلدون خالدا بن حميد بالزناتي.

وحول القيروان قادت قبيلة هوارة عصيان الخوارج، والقبيلة كما ذكرنا من البدو المقيمين جنوبي تونس والمنطقة الطرابلسية. وهي التي انتصر عليها حنظلة القائد العربي على أبواب القيروان في معركة القرن سنة 742. ثم عادت للاستيلاء على طرابلس وقتلت حاكمها. ومنذ سنة 757 تولت قبيلة ورفجومة وبعض فروع قبيلة نفزاوة قيادة عصيان الخوارج، وقد سبق لنا أن قلنا ما يجب قوله عن ورفجومة ونفزاوة اللتين تقطنان شرقي الأوراس وجنوبه وهما من البتر.

وفي سنة 765 ظهرت قبيلة بني يفرن في طليعة الخوارج، وهم من الزناتيين الذين يساندهم البربر من قبيلة مغيلة بمنطقة تلمسان، وقد اختاروا أبا قرة اليفرني رئيسا عليهم، بل هو أبو قرة المغيلي وقد نصبوه خليفة.

وقد سبق أن أتينا على ذكر المغيلة ولا يهم إذا كان أبو قرة من بني يفرن أو من بني مغيلة، إذ كانوا يقيمون بجوار بعضهم في منطقة تلمسان كما روى ابن خلدون. ويرجح أن قاعدتهم كانت منطقة شلف الواطئة ومدينة مأذونة الصغيرة ليس بعيدا عن مضغرة التي نشأ فيها الخوارج. ويشير ابن خلدون إلى الصلة الوثيقة بين هؤلاء: حل أبو قرة في مكان خالد بن حميد كرئيس على زناتة. وخال هذا هو الذي اخذ مكان ميسرة. وهكذا نرى أن معركة الزعامة لديهم وقعت في غور تازة ومنطقة وهران وعلى المرتفعات التلمسانية:

"عند حصار تبنة رأى أمير الجيش العربي عمرو بن حفص انه مطوق من كل صوب، فعمد لبث التفرقة بين المحاصرين. وبما أن بني يفرن الزناتيين كانوا اشد القبائل البربرية بأسا سواء م حيث العدد أو الشجاعة في الحرب، فقد اشترى حياد رئيسهم أبي قرة بأربعين ألف درهم. وكافأ نجل أبي قرة بأربعة آلاف لأنه نجح في إجراء المفاوضات. عندها تراجع بنو يفرن عن تبنه وانفك حصار القائد العربي".

وبديهي أن "أواسط المغرب" كما يسميها ابن خلدون التي تضم مر تازه ووهران والهضاب الوهرانية العليا كانت أكثر عددا واشد بأسا من المواطن الصحراوية المنعزلة





في جنوبي تونس والمنطقة الطرابلسية حيث قبائل نفزاوة وورفجومة وهوارة. وتعتبر تلمسان قلب الخوارج النابض وهي أيضا بلاد زناتة.

ويمكننا القول بما لا يقبل الشك أن الثورة الخارجية كانت ثورة زناتية، فيما دخلت بلاد زناتة لأول مرة مسرح التاريخ. وهنا ظهر اعرق الزناتيين على حد قول ابن خلدون. وبعد سقوط نوميديا كانت بلاد زناتة أول من رفع راية المغرب المنكسة.

## مذهب الخوارج مذهب ضد المجتمع

تتفق ثورة الخوارج ببعض ملامحها وطبيعة الزناتيين، أي طبيعة البدوي المعروفة.

فهو لا يستطيعون الخضوع لسلطة موحدة، مثال ذلك أن ميسرة قتل على يد جنوده. وكان له خلفاء من أمثال خالد وأبي قرة، غير أن أحدا لم يكن ينظر نظرة جدية لهؤلاء الخلفاء. فأبو قرة لم يتردد يوم حصار تبنه في بيع قضيته مقابل 40,000درهم.

وينقسم خوارج المغرب إلى فرقتين: الصفرية والإباضية، ويمثل الصفرية التطرف، والإباضية الاعتدال، وهم أشبه بالبلاشفة والمناشفة تباعد بينهم كراهية عميقة الجذور. لقد هاجم صفريو نفزاوة وورفجومة مدينة القيروان بوحشية لا نظير لها، وأثار الأمر حفيظة إباضيي زناتة وهوارة فسارعوا إلى طرابلس وحاربوا الصفريين واسترجعوا منهم القيروان.

ولعل المذهب الخارجي قد انبثق عن فئة من الساخطين ذات طبيعة ديمقراطية وديماغوجية. لكنها طريقة في التعبير لا تلائم هؤلاء.

في المدن مثلا كان معظم المنتمين للمذهب الخارجي من الطبقة الشعبية الدنيا. حتى أن ميسرة كما وصفه ابن الأثير كان سقاء في طنجة وهو يمثل المذهب المتطرف لانتمائه للصفرية. ويمكننا القول أن وضاعة أصله وعدم خبرته وانعزاله السياسي كانت وراء ولايته القصيرة. ويقول ابن خلدون: "لقد تعرض لغضب البربر فمات تحت أيديهم". أنها الردة السريعة وهي مألوفة لدى الطبقات الشعبية. ويبدو أن جماهير المدن لم تكن أكثر من خميرة ورصيد للمذهب الخارجي.

والمذهب الخارجي هذه الملحمة العسكرية اعتمدت ولا شك البدو الزناتيين وهم جنود بالولادة يأتمرون بأمر رئيس واحد. فلابد لرجل كابي قرة مثلا إلا وان يكون أميرا. غير أن هؤلاء البدو سواء كانوا في السهوب أو الصحارى يدفعون ثمن حيويتهم ونشاطهم

غالبا، حيث يعيشون قاسية بائسة. لقد كانوا ثائرين على تلك الحياة الرغيدة التي يتنعم بها الفاتحون العرب شأنهم في ذلك شأن الجماهير الشعبية، أي أنهم بقول أدق كانوا يكرهون الحضرة. ولم يكن انتصارهم سوى انفجار مدمر لها.

ويذكر البيان أن الصفرية كانت تستبيح جميع النساء كما تستبيح إراقة الدماء وقد اقتسم الصفريون افريقية اقتسامهم لنسائها وثرواتها.

ويشدد جميع المؤرخين على الفظائع التي ارتكبت يوم استولت قبيلة ورفجومة على القيروان. ويقول ابن الأثير إن بني ورفجومة ارتكبوا جميع الفظائع حيث سجنوا النساء والأطفال وربطوا سائمتهم داخل المسجد الجامع وأوقعوا فيه أضرارا عديدة. كما شاهد الناس بعض أفراد القبيلة وهم يقتادون امرأة إلى داخل الجامع رغما عنها. وكانت تلك فضيحة كبرى قوبلت بالسخط من الجميع. وقد حمل المؤرخون أصداء غضب الناس حتى أن الحادث هز مشاعر الخوارج الإباضيين المعتدلين.

وقد زحف إباضيو طرابلس من زناتة وهوارة لمحاربة بني ورفجومة وانتزاع بقايا القيروان منهم. على أن تدخل هؤلاء لم يكن بدافع إنساني محض إذ ليس من المستبعد أن يكونوا قد شعروا بالحسد من إخوانهم في المذهب وأرادوا أن يظفروا لأنفسهم ببعض الفائدة.

وكان لهذا الهمجية الخارجية أثار عملية ملحوظة. إذ يحدثنا ابن الأثير كيف أن العلماء ساروا في شوارع القيروان يحثون الناس على الجهاد المقدس ضد الخوارج منددين بأعمالهم الوحشية كاسترقاق النساء والأطفال وتقتيل الرجال.

عندها هب الناس لقتالهم تشجعهم نساؤهم على ذلك. هبوا رجلا واحدا لقتال الخوارج. لقد كان الخوف من المصير المحتوم حافزا قويا لهؤلاء الحضريين كي يقاتلوهم. وحتى الجماهير الشعبية في المدن التي تؤيد الخوارج باتت تنفر منهم لفرط همجيتهم.

لقد عرض بنو ورفجومة سكان القيروان لجميع صنوف التعذيب والهوان، حتى أن الذين ساعدوهم ندموا على ما فعلوه. وهكذا تظهر حقيقة التنافر الواضح بين البدو والحضر منذ عهد الكاهنة وعهد مسيناسا وكذلك في عهد الخوارج. فسكان المدن متشبثون بحياة النظام والاستقرار على عكس البدو دعاة التهديم المطلق.

لقد فشل الخوارج في افريقية على الرغم من النجاح الكبير الذي حققوه. فبعد معركتي شلف وسبع الظافرتين انهزم هؤلاء في معركة القرن. ويشدد المؤرخون على أهمية هذه المعركة وعلى التنبؤات التي سبقت وقوعها وفداحة الخسائر التي حصلت





فيها. لقد أراد الأمير حنظلة أن يحصي الأموات فعجز عن ذلك. فأمر برمي عود من الطيب على كل جثة ثم جمعت العيدان فبلغ عددها مئة وثمانين ألفا. ويردد جميع المؤرخين مع حكيم مصري هو غيث بن سعد قوله: "بعد معركة بدر (وهي المعركة التي انتصر فيها النبي على القرشيين وأرسى دعائم الإسلام) وددت لو استطعت حضور معركة القرن".

وظلت افريقية مهددة في السنوات الطويلة التي تلت معركة القرن، غير أن العرب أعادوها في النهاية لسلطتهم من ناحية الشرق. وقد أقدم الأمير العربي يزيد بين 773 و778 على تقتيل بني ورفجومة بشكل مريع. حتى أن اسمها اختفى من التاريخ وأصبحت فلولها من الضعف بحيث راحت تنضم لصفوف قبائل أخرى.

واستتب الأمر للأغلب الذي عينه هرون الرشيد حاكما على افريقية، وقد عمل هذا على إشاعة العدل في البلاد. واستطاع أن يحقق لنفسه سلطانا مطلقا لم يلق معارضة أو كراهية. وأصبح ملكه إرثا لبنيه من بعده وبدأت أجيال هذه الأسرة تتوالى على الحكم واحدا بعد الآخر، طيلة القرن التاسع.

لقد كانت هذه المدن الإفريقية القديمة معدة منذ قرطاجة للحكم المنظم لو قيض لها مثل هذا الحكم.

ولم يأت الخوارج في افريقية إلا بالخراب. لهذا فشل مذهبهم وساعد على استتباب الأمر لصالح الفاتحين العرب. أما في ما تبقى من المغرب، في تلمسان وتاهرت ومراكش فتختلف الحال. ذلك أن الخوارج تركوا فيها أثارا دائمة رغم طبيعة الهدم التي عرفوا بها.

# 3 - فاس مملكة انبثقت عن الخوارج

## تعد مملكة فاس أبقى أثار الخوارج وقد حكمها الأدارسة.

بعد أن فرغ ابن خلدون من كلامه عن منجزات ميسرة والانتصارين اللذين حققهما الخوارج في شلف وسبع اضاف: اثر هذه الأحداث ظهر إدريس مؤسس الأسرة الإدريسية في بلاد المغرب. كان ذلك سنة 788 بالضبط على حد قول ابن خلدون. ثم أن ابن خلدون نفسه يحدد ظهور الأسرة عام 786. في حين يراه النويري في سنة 788.

فالصلة مع الخوارج واضحة وكذلك مع سقوط الأمويين في الشرق وحلول العباسيين مكانهم.

ويشدد المؤرخون العرب على رفعة أصل إدريس ويقولون انه متحدر من النبي محمد من علي وفاطمة. كما يشددون على مناهضته للعباسيين وهي مناهضة لم تحظ بنتيجة. وكذلك على حياته كلاجئ ومساعدة المصريين له على اللجوء للمغرب ليكون في مأمن من عدوه العباسي. وكلها تفاصيل لا تهمنا كثيرا. وجل ما في الأمر أن هذا المشرقي الذي طوحت به ثورة الشرق ولا شك شخصية دينية مرموقة خليقة بالاحترام. ولم يذكر المؤرخون انه كان بطلا في الحرب كما لم يقم بأي فتوحات ولم يخض معركة واحدة.

ولم يعمر طويلا بعد اعتلائه العرش إذ توفي سنة 792 بعد حكم دام أربع سنوات. وحصل بعد ذلك أمر غريب. فإدريس لم يترك ذرية غير انه ترك امرأة حاملا أو قيل انه تركها. وانتظر الناس ولادة الطفل وكان ذكرا. ويمكن الظن أن لو لم يكن كذلك لامكن استبداله. واعتبر الطفل بعد ولادته بأيام خليفة محتملا لوالده. ولقب بإدريس الثاني بعد أن اثبت قدرته على العيش. والمؤرخون العرب يجمعون على هذه القصة. ويقولون أن إدريس الجديد قد حظي بالبركة. ويقول بعضهم أن إدريس الأول مات مسموما لكن الرواية ليست ثابتة. والمهم أن الفترة الفاصلة بين حكم الأول وحكم لثاني لم يسدها القلاقل والحروب. ويرى النويري أن الاغالبة في تونس لم يشأوا علنا مناهضة سليل الرسول. فما من احد في المشرق أو المغرب إلا ويمكن الاحترام لهذا السلالة. والسؤال الآن: ما اسم القبيلة التي لجأت لبركة الأدارسة لتنشئ حكما مستقلا.

تولى إدريس الأول الحكم في ظروف خاصة إذ لا نعرف اسم القبيلة التي ساندته

للوصول إلى السلطة، بينما نعلم أن كل ملك مغربي لابد وان يستند إلى قبيلة واحدة، القبيلة التي ينتمي إليها. شأن كسيلة وقبيلة أوربة، والكاهنة وجراوة والفاطميين وكتامة والأمراء الصنهاجيين وصنهاجة إلى ما هنالك من أسماء لا تحصى. ويرى ابن خلدون أن إدريس الأول تحالف مع بني زواغة وزناتة وسدراتة وغياثة ونفزه ومكناسه وغماره وسائر القبائل البربرية التي تقطن المغرب. ولو راجعنا كتاب ابن خلدون في مكان آخر وكذلك سائر المؤرخين لوجدنا انه اغفل عنصرا مهما إلا وهي قبيلة أوربة، ثم قبيلة متغرة التي تعرضت للوهن لكنها حافظت على استمرارها، ثم مغيلة القاطنة منطقة شلف الواطنة ومأذونة وكانت من اشد أعوان الأدارسة.

ثم نذكر حلفاء انضموا إليه في وقت متأخر أمثال بني يفرن ومغراوة تلمسان. لقد انضوت كتلة الزناتيين من طنجة إلى تلمسان وحتى شلف تحت اسم إدريس. ولكن ما هي النواة الأساسية التي قام عليها حكمه؟

نشأ حكم الأدارسة في وليلي بإجماع كل المؤرخين. ويروي ابن خلدون أن إدريس ومولاه رشيد وصلا إلى وليلي سنة 788. وفيها نودي به ملكا وقد جعل منها عاصمة له، وفيها أيضا خلفه ولده إدريس الثاني وفي وليلي اليوم لا يزال ضريح إدريس الأول محاطا بالتبجيل والاحترام.

وليلي هي فلبيلوس القطاع المراكشي من تمجاد وجميلة الخ...وهي مدينة رومانية تعتبر بعد طنجة العاصمة الثانية لموريتانيا الطنجية.

وفي "روض القرطاس" يرد اسم طنجة: سار إدريس الأول ومولاه حتى بلغا مدينة طنجة وكانت وقتئذ عاصمة مراكش وأم مدنها وأجمل هذه المدن واعرفها تاريخا... ومكث إدريس ورشيد في طنجة بعض الوقت لكنهما لم يألفا جوها فتابعا السير حتى وصلا إلى وليلي عاصمة جبال زرعون. وكانت المدينة محاطة بأسوار جميلة ذات هندسة قديمة...ونزل إدريس بضيافة وليلي.

وهكذا بحث إدريس عمن يؤازره في المدن الرومانية الواقعة في موريتانيا الطنجية واختار منها فلبيلس بعد تجربة. فأي معنى يمكننا إعطاؤه لذلك؟

لا يستطيع المؤرخون العرب إفادتنا فغي هذا المجال، لأنهم أسدلوا الستار على المرحلة التي سبقت الإسلام. وإذا كان ثمة من صلة بين المرحلتين فلا مجال لإيجادها واضحة لدى هؤلاء، وعلينا أن نقرأ بين السطور كما هي عادتنا في مثل هذه الظروف.





يربط المؤرخون في بداية عهد إدريس -بين وليلي وقبيلة أوربة البربرية. ويروي ابن خلدون أن إدريس لما بلغ وليلي احتمى عند إسحاق بن محمد بن حميد أمير قبيلة أوربة. أما إدريس الثاني فقد أوكل لمؤيديه من بني أوربة ارفع المناصب في مملكته.

ويتفق كتاب روض القرطاس في ذلك مع ابن خلدون حيث يقول "كان قد مضى على وجود إدريس ستة أشهر في وليلي حين جمع زعيم المدينة عبد المجيد إخوانه وقبيلة أوربة لمبايعة إدريس سلطانا". "وكانت قبيلة أوربة أول من حيى الملك الجديد وأوكل إليه القيادة والإشراف على أمور العبادة والحرب والمال". وانضمت بعد ذلك سائر القبائل والقبائل الصغيرة التي ذكرها روض القرطاس.

ومن نافلة القول إن أوربة هي أوربة نفسها، أي القبيلة الأوراسية الشهيرة التي قتلت سيدي عقبة بناء لأوامر كسيلة. وقد سحق العرب هذه القبيلة بعد هزيمة كسيلة ومصرعه. يقول ابن خلدون: قصد بنو أوربة بعد هزيمتهم إلى المغرب الأقصى وما أن بلغوا هذه البلاد حتى أقاموا في وليلي وهي مدينة تقع على سفح جبل زرعون.

أما عن أصل أوربة فيقول ابن خلدون أنهم من البرانس المتميزين عن جيرانهم الأوراسيين الشرقيين أتباع الكاهنة الذين هم من البتر الزناتيين. يعني ذلك أنهم على صلة بالمستوطنين الصحراويين ذوي الطابع الطرابلسي. وكان بنو عربة يقطنون الوديان العالية المقفلة أي وادي الأبيض ووادي العبدي. ولا يزل أبناؤهم يعيشون في تلك المنطقة بخلاف ما يرى ابن خلدون من أنهم غادروها. وبنو عربة هم الذين اختارهم ماسكوراي ليقتفي بواسطتهم أثار روما. ذلك أنهم من سلالة الدوناتيين وهم نوميديون سابقون تأثروا كثيرا بعصور السيطرة الرومانية. وما لجوؤهم إلى فلبيلس بعد أن هاموا على وجوههم في بلاد المغرب سوى دليل على استعدادهم للتزواج مع هذه المدينة الرومانية القديمة.

وهكذا نرى أن وراء بركة إدريس أكثر الشعوب الطنجية تمدنا. ومن الطبيعي أن تكون فلبيلس مركزا لهم بعد قرن من الزمان كانت فيه طنجة منطلقا للفتح العربي المتجه نحو اسبانية.

من البديهي أن الأندلس في الشمال كانت مركزا لإشعاع الحضارة القديمة على مضيق جبل طارق، وهو مركز قديم جدا لا يعود تاريخه إلى المدن القرطاجية والفينيقية وحسب وإنما يتعداها ليشمل ترتسوس التي سبقتها. لقد كانت هذه مركزا حضاريا في موريتانيا الطنجية قبل أن تعطيها روما اسمها هذا بوقت طويل. ومهما يكن من أمر

التنقيب عن الآثار في فلبيلس فان حكام المناطق فيها كانوا يحملون نفس الاسم الذي حمله حكام سائر المدن الرومانية. لقد كان الكونت جوليان على حد رواية ابن خلدون سيد الجزيرة. ثم إن مضيق جبل طارق لم يصبح حدودا إلا منذ عهد إيزابيلا الكاثوليكية وبودبيل وقبل ذلك كان صلة وصل. ولم تكن موريتانيا الطنجية سوى ملحق للحضارة الأندلسية. وفيها حضارة مدينة قديمة عرفت ظروفا مشابهة لافريقية الطرف الثاني للمغرب. كما أن موقف السكان بقي على حاله. وهو موقف نستشفه من كلام المؤرخين العرب على جوليان (بوليان).

يقول دي سلان: لا يمكننا أن نشك بصحة وجود هذا القائد المعروف جدا. ويعرب دي سلان بهذا الصيغة عن افتقار مبطن للجحود والجاحدين. وهو تعبير يدلنا على الطريقة التي نقرأ بها -عن الغربيين- مؤلفات المؤرخين العرب.

ومن الخطأ الجسيم أن نعير انتباها كبيرا لشخصية الكونت جوليان. فلو صح وجوده وهذا مرجح. فلابد وان يكون قائدا كسائر القواد. وخليق بنا أن نتحدث عن ردات فعل موريتانيا النجية عند بدء الفتح العربي.

يروي ابن الأثير انه بعد وصول عقبة إلى طنجة "جاءه يوليان مرحبا وقدم له الهدايا الثمينة واعتراف بسلطته. وسأله عن البربر فأجابه: أن الله وحده يعرف عددهم وأنهم يقيمون في سوس وأنهم لم يتنصروا، وان قوتهم عظيمة. وزحف عقبة على سوس حيث صادف مصاعب كبيرة ومني ببعض الفشل مما لا يسمح لنا بالقول بأن منطقة طنجة قد حنثت بعهدها. وهذا أمر طبيعي. ذلك أن في المنطقة مجموعة صغيرة من سكان المدن المتحضرين المنعزلين بعيدا لم يسلموا من الاحتكاك بأعداد ضخمة من البربر الفوضويين. وما عدوهم الحقيقي إلا هؤلاء البربر. وهم على استعداد للتضحية بالغالي لدفع خطرهم.

كان جيش القوط وقتئذ متمركزا شمالي المضيق، على أن منطقة طنجة أثرت الحماية العربية على الحماية الجرمانية. ويروي لنا النويري كيف أن يوليان قد اصطحب الجيش العربي الذي قاده طارق وموسى بن نصير بعد ثلاثين سنة وأرشده إلى نقاط الضعف في البلاد ووفر لهم المعلومات عنها.

وموجز القول إن المدنيين بحاجة لحكومة منظمة ذات أجهزة عسكرية وإدارية. وهذا ما جاء به الولاة العرب. ولم يكن أهل طنجة ليغفلوا ذلك، فجرى فيها ما جرى في سائر المدن الإفريقية.





ولم تصادف منطقة طنجة صعوبات تذكر مع الفاتح العربي. ولم تشك من شيء في عهده. وقد ظلت المدن على حالها حتى جاء الخوارج ليطرحوا مشكلة الأمن والنظام من جديد. كان عليهم أن يجدوا ملجأ لهم، فعثروا على ضالتهم في حكم الأدارسة.

## مدينة فاس

تعتبر فاس أهم المعالم المدينة التي تركها الأدارسة. ذلك أن هذه الأسرة هي التي أنشأتها وخلقتها خلقا عظيما. ويختصر تأسيس فاس مجمل نشاط الأدارسة، وهو نشاط كاف لتخليدهم.

فما من أسرة مالكة أخرى في المغرب أحرزت نجاحا مماثلا.

وقد قام الأدارسة ببناء فاس حالما سنحت لهم لفرصة لذلك.

ولم تبن المدينة في حكم إدريس الأول وكانت ولايته قصيرة جدا، ولم يفكر احد ببناء المشاريع الضخمة في حداثة إدريس الثاني ومنذ 807 بدأ إدريس بناء المدينة...وفي العام التالي جعلها مقرا.

سنة 807 كان إدريس فتى في الخامسة عشرة. لكن رغبة الطنجيين كانت حافزا له.

"لم تعد مدينة وليلي تتسع للجيوش المتزايدة العدد ولسائر رعايا المملكة، فبحث إدريس عن مكان يقيم فيه عاصمة جديدة". كما قال ابن خلدون. ويجب إلا ننسى أن فاس كانت وريثة فلبيلس المباشر، بل أن هذه الأخيرة انتقلت إلى فاس. ولكن ما سبب ذلك وهل تفسير ابن خلدون هو الجواب الشافي؟.

آثار فلبيلس معروفة، وفيها متسع لزيادة حجمها، غير أن الشرقيين لا يرون رأينا في هندسة المدن حيث يفضلون بناء مدينة جديدة على ترميم القديمة أو توسيعها. فمن السهل عليهم أن ينقلوا كتلة بشرية من مكان لآخر، إذ ليسوا متمسكين بالأرض تمسكنا نحن. وافريقية خير مثال على ذلك حيث تخلى العرب عن مدينة قرطاجة وبنوا القيروان في مكان آخر، على عكس الرومان الذين أعادوا بناء قرطاجة في نفس المكان الذي كانت تقوم عليه زمن البونيين. بعد ذلك بعدة قرون انتقلت عاصمة افريقية إلى تونس. ويلاحظ ابن خلدون بثاقب نظرة أن مدن المغرب مرتبطة بأسر المغرب. فالسلطان هو الذي يختار المكان المناسب لإقامة عاصمة ملكه، لهذا لم تعمر المدن المغربية معظم الأحيان بعد بنائها. وليس هذا شأن فاس التي عاشت بعد الأدارسة ولا تزال قائمة حتى اليوم.

ليس من المستغرب إذن أن يتنادى حاكم وأعوانه لبناء مدينة جديدة. ولكن الغريب حقا أن يتمكن هؤلاء من أبناء مدينة كفاس ظلت عاصمة لمراكش طيلة ألف عام. ولنحاول الآن استقصاء الأسباب الكامنة وراء نجاح المدينة:

يجمع المؤرخون على القول أن اختيار مكانها جاء نتيجة بحث دقيق. وفي "روض القرطاس" أخبار عن طريقة هذا الاختيار. في سنة 805 ذهب إدريس الثاني وبعض ضباطه للبحث عن مكان. وكان وقتئذ في الثانية عشرة من عمره. ووقع اختيارهم على منطقة في جبل واليخ. حيث بدأت أعمال البناء". وفي ذات ليلة هبت رياح عاتية هدمت كل شيء واقتلعت نباتات المدينة وأشجارها وقذفتها في نهر سبع".

وفي العام التالي عاود إدريس البحث وفكر ببناء المدينة على ضفة النهر في مكان يدعى خوالن غير انه فكر بان فيضان النهر سيؤثر على عاصمته.

ثم إن قضية جلب المياه كانت مهمة بالنسبة إليهم. وهي قضية لابد منها في بناء المدن. ولم يكن مدنيو فلبيلوس لينسوا الأمر وهم وراء إدريس. واهتدوا إلى حل ممتاز حيث وقع اختيارهم على مكان غني بالمياه هو المكان الذي تقع عليه فاس حاليا.

ويمتد وادي فاس في تعرجات تتخللها المستنقعات ولا خوف من فيضانه وبنيت المدينة على شكل صدفة تحيط بها الأسوار وبيوتها مرصوفة فوق بعضها على المنحنيات. ولكل بيت قناة ماء صغيرة أشبه بجول يترقرق منه الماء العذب المنساب من بيت لآخر. والمياه من الوفرة بحيث تكفي للاستهلاك المنزلي ولري الحدائق وإقامة النوافير الجميلة. والأمر لا يكلف أكثر من العناية بتلك القناة الأزلية. حيث يتولى كل رب منزل العناية بالجزء الخاص به دون اللجوء إلى سلطات رسمية.

وجدير بالذكر هنا أن طرقة الهندسة الغربية في البناء تعتمد إيصال الماء من أمكنة بعيدة بواسطة أنابيب اصطناعية لهذا يمكن لحجم المدينة أن يتعاظم ويمكن البحث دائما عن ينابيع جديدة لإيصالها للإحياء الجديدة. ذلك كان طراز فلبيلس وقد بدأ سكانها بالرحيل عنها منذ بداية الحكم العربي. ذلك أن المدينة ذات الطابع الغربي تحتاج للمزيد من الصيانة وتدخل السلطات للحفاظ على سلامة اقنية المياه وسائر الأمور الحياتية. أما فاس فينابيعها في داخلها كما رأينا ولا تحتاج لهذا التنظيم.

أنها المدينة الشرقية النموذجية ووادي فاس لا يحتاج لأية عناية أو حراسة. حيث لا يستطيع البربر أو المتمردون تحويل نقطة ماء عن مسارها. والمدينة مركز قائم بذاته لا يحتاج الآخرين وهم يحتاجونه. وفيه ازدهرت حركة التجارة والصناعة.





وفاس نموذج فريد من نوعه بين المدن المغربية. وقسنطينة بدورها مدينة باستمرارها الطويل لحسن اختيار موقعها. لكنها اقرب إلى قلعة محصورة لا يمكنها أن تتسع.

أما فاس فقد نجحت نجاحا مذهلا. فهل هي وليدة تفكير هذا السلطان اليافع أم أن هناك دماغا مفكرا وراءه؟ لعل الحس المدني لسكان فلبيلس وتجاربهم السابقة كانت وراء هذا أما فاس فقد نجحت نجاحا مذهلا. فهل هي وليدة تفكير هذا السلطان اليافع أم أن هناك دماغا مفكرا وراءه؟ لعل الحس المدني لسكان فلبيلس وتجاربهم السابقة كانت وراء هذا الاختيار الناجح.

ثم أن سكان المدن قد آثروا التجمع في مدينة واحدة قوية كي لا يظلوا معرضين دائما لمد وجزر القبائل العربية والبربرية التي كانت تغزوهم بين الحين والآخر.

ولم تكن أية قبيلة بربرية لتحمل ولاء خاصا للأدارسة بما فيها قبيلة أوربة. ويقول ابن خلدون "إن إدريس أمر بقتل زعيم أوربة بعد أن اكتشف تآمره مع الاغالبة". ويضيف في الفقرة نفسها: "كان إدريس يشك دائما بولاء البربر.. وقد عين وزيرا عربيا يلقب بالملجوم بسبب آثار جرح في انفه. كما استعان بنحو خمسمائة من أفراد القبائل العربية ليبقوا دائما في خدمته بعيدا عن البربر. وقد ساهم هؤلاء جديا في ترسيخ حكمه".

ومما لا شك فيه أن الأدارسة استطاعوا رغم ذلك أن يستقطبوا العديد من القبائل البربرية. وقد تجاوز هذا التأييد الحدود الجزائرية الحالية وذلك لأسباب معروفة.

جميع الكتب المدرسية تذكر بحق أن العرب فرغوا من دفع البربر لاعتناق الإسلام بعد أن أشركوهم في الحملة على اسبانية. وقد أفسح الأدارسة للبربر المسلمين مجال غزو المناطق غير المسلمة ومنها إحدى المناطق المراكشية جنوبي أبي رقرق.

تلك كانت من أولى اهتمامات هذه الأسرة. فإدريس الأول الذي لم يستمر حكمه أكثر من ثلاث سنوات (788-791) زحف على جماعات البربر في تلك المنطقة وكانوا وثنيين ويهودا ونصارى واستولى على تمينة (بلاد الشاوية حاليا) ومدينة سلة (الرباط عند مصب نهر أبي رقرق) وتدله (الواقعة في أم الرابية) وأرغم السكان على اعتناق الإسلام.

وسار إدريس الثاني على خطى أبيه بعد أن بلغ أشده وبنى مدينة فاس. يقول ابن خلدون: "في سنة 812 (كان إدريس الثاني في الواحدة والعشرين) زحف على مواطن بني مصمودة وأخضعهم بعد أن احتل مدنهم" ويقيم بنو مصمودة في منطقة الأطلس العليا جنوبي مراكش الحالية.

أنها سياسة معقولة جدا. فالحدود الجبلية تمتد على طول نهر أبي رقرق. وقد حدثنا بلين في التاريخ القديم عن تلك المناطق المنعزلة التي كانت مرتعا للفيلة المتوحشة وعصابات السلب الخطرة.

ولم يعن الرومان باقتحام معقل البربر هذا في الجنوب المراكشي وتبدأ سيطرتهم من فلبيلس وفاس.

ولم يفكر الأدارسة بالحرب في غير تلك المنطقة. ففي ناحية تلمسان استطاع إدريس الأول أن يخضع المدينة بدون مقاومة وكان ذلك سنة 789. " ما أن استولى على تلمسان حتى وضع إدريس فيها أساس المسجد الكبير وبنى محرابا نقش عليه اسمه، ولا تزال الكتابة في المحراب حتى الآن". وحين وفاة إدريس الثاني سنة 828 كانت تلمسان لا تزال تابعة للإمبراطورية. غير أن خضوعها الإرادي جاء نتيجة العروض المغرية التي قدمها حاكم فاس للبربر المسلمين.

وهكذا لعبت منطقة طنجة تحت حكم الإدريس دورا مشابها لدور غالبة في بلاد الفرنجة. حيث استطاعت مقاطعة رومانية أن تحقق فتحا لم يستطع تحقيقه الإمبراطورية بأسرها. تلك كانت جرمانية في الغرب وكذلك جنوبي مراكش. وهو أمر ذو دلالة كبيرة. فسيطرة الأدارسة جنوبي الحدود الجبلية خلقت إمكانيات جديدة إذ فتحت أبواب الشمال للمرابطين ثم للموحدين. وهكذا بدأ التاريخ المراكشي كحقبة مستقلة عن تاريخ المغرب. وقد امتدت دولة الموحدين نحو الجنوب باتجاه غور تازه إلى حين، لكنها ظاهرة شاذة. والقاعدة العامة أن مراكش الموحدين تماما كمراكش المرابطين ومراكش سائر العصور تطلعت جميعا نحو اسبانية وراحت مراكش هذه تتطور وكأنها منعزلة عن سائر المغرب لاسيما بعد تأسيس فاس.

إن ظهور المملكة الإدريسية على علاقة بظهور الخوارج لكنها علاقة رد فعل خاص. يقول ابن خلدون:"وحين انس إدريس الثاني من نفسه القوة قضى على الخوارج في جميع دوله." وخليق بنا هنا أن نذكر ما يمثله حكم إدريس: لقد التف حوله مدنيون متعطشون للنظام والأمن، وتقودهم نخبة من الموسرين المتعلمين الذين هالتهم فظائع الخوارج. وقد ساعدوا الأدارسة على بناء فاس هربا من هؤلاء. وفي هذه النقطة البعيدة من بلاد المغرب نشأت عن الخوارج رغم إرادتهم حكومة نظامية ذات طابع مدني.



# 4 - ممالك الخوارج
# مملكة تاهرت

## ممالك الخوارج

تختلف الحال في شرقي تلمسان عنها في جنوبها، حيث نشأت ممالك خارجية بكل معنى الكلمة.

## سجلماسة

إحدى هذه الممالك قامت في سجلماسة بتفيلالت، ولا نعرف عنها إلا ما أورده ابن خلدون.

بنيت هذه المدينة عام 757 ف خضم أزمة الخوارج وقد لعبت دورا عظيما. وينتمي مؤسسوها لقبيلة مكناسة التي قرن اسمها بمكناس. ومن المعروف أن هناك طريقا طبيعية مهمة هي طريق السلطان تصل تفيلالت بمنطقة فاس ومكناس. ويرى ابن خلدون أن قبيلة مكناس من البتر الصحراويين. ومن الطبيعي أن يعتنق هؤلاء المذهب الخارجي لمساندة ميسرة. وقد شكلوا في البداية الفئة المتطرفة، فئة الصفرية. وقد انتخبوا الأمير عيسى أول رئيس عليهم ثم قتلوا بشكل فظيع، وهذا دليل على تطرفهم.

وأصبحت سجلماسة عاصمة نحو نهاية القرن الثامن وذلك زمن حكم أبي منصور اليسع واستتب الأمر لهذه الأسرة الجديدة فأخضعت لها الواحات الصحراوية وفرضت عليها الجزية. ومات أبو منصور سنة 823 لكن دولته عاشت طويلا من بعده.

أنها دولة الصحراء والنخيل، وحري بنا أن نذكر هنا أن أشجار النخيل في وادي غير وفي غرارة لم تكن موجودة في عهد الرومان. فقد ظهر النخيل في المغرب مع ظهور الجمل أي في عهد البتر وزناتة بعيد الفتح العربي.

ومن الطبيعي أن تنشأ عن غزو البتر الزناتيين مملكة النخيل في بلاد البربر الجديدة. وتعتبر أشجار تفيلالت ودراع من أجمل واهم ما في المنطقة من نخيل فهي معدة لتكون مسرحا لنشاط كبير. غير أنها مناطق مجهولة منا الآن ولم يبق من آثار سلجماسة شيء يذكر. وما من شيء سوى الذاكرة يدل على وجود مملكة خارجية فيها.

ويروي لنا ابن خلدون أن أبا منصور قد زوج ابنه وابنة عبد الرحمن ابن رستم سيد تاهرت. الأمر الذي أشاع جوا من الألفة مع مملكة خارجية أخرى هي تاهرت.

## مملكة تاهرت

وراء مملكة تاهرت شخصية مشرقية مرموقة, كما هي حال المملكة الإدريسية والأسرة الفاطمية. انه عبد الرحمن ابن رستم و يرجع أصله إلى رستم الشهير الذي قاد الجيش الفارسي معركة القادسية وهو فارسي من أحفاد كسرى. ولا غرابة أن شاهدناه على رأس فئة من الهراطقة في الوقت الذي ازداد فيه النفوذ الفارسي زمن العباسيين. وتاريخ الرجل واضح: فقد ظهر في المغرب مع قبيلتي زناتة وهوارة الطرابلسيتين وهما من الخوارج المعتدلين (الإباضيين) الذين انتزعوا القيروان من قبيلة ورفجومة بقيادة أبي الخطاب. وأصبح رستم حاكما للقيروان على مذهب الإباضية اثر طرد ورفجومة منها. وقد اضطر للفرار بعد عودة القوات العربية ظافرة بقيادة ابن الأشعث. فر إلى تاهرت في أواسط المغرب... حيث استقر فيها وبنى مدينة تاهرت الجديدة كان ذلك سنة 761. ومنذ ذلك الحين نشأت مملكة تاهرت واشترك ابن رستم سلطان تاهرت في حصار تبنة بجيش قوامه ستة آلاف من الإباضيين. وهو في عداد أولئك الذين باعهم أبو قرة تحت أسوار تبنة بأربعين ألف درهم. فاضطر للانسحاب مع من بقي من جيشه. ولم يفكر العرب باللحاق به, وسرعان ما رضخ القادة العرب للأمر الواقع. في سنة 787 طلب ابن رستم حاكم تاهرت المصالحة مع حاكم القيروان وكان له ما أراد. ولم يقع ما يعكر المعاهدة من جهة الاغالبة حكام افريقية إلا في عهد الوهاب خليفة ابن رستم. "في سنة 811 قام في طرابلس على رأس جيش من قبيلة هوارة بمحاصرة الأمير الاغلبي في الوقت الذي كان فيه عرش الاغالبة شاغرا في القيروان. وانتهى النزاع بين الطرفين بتوقيع معاهدة واشترى الاغالبة السلام من عبد الوهاب بعد تخلوا لصالح أتباعه من البربر عن مجمل البلاد المفتوحة... وانسحب عند الوهاب".

أما من ناحية الأدارسة فقد حصل نزاع بين الرستميين وزناتة تلمسان (مغراوة وبنو يفرن) التكتلين مع سائر البربر الموالين لفاس. وقد حاول هؤلاء إرغام الرستميين على الخضوع للأدارسة فرافض هؤلاء بعناد ولم ينهزموا إلا في عام 908 أمام الجيش الفاطمي.

وهكذا تتضح ملامح هذه المملكة الرستمية التي عاشت قرنا ونصف القرن من الزمان واستطاعت أن تعاصر مملكة الأدارسة في فاس ومملكة الاغالبة في القيروان. ويجمع المؤرخون العرب على تأييد ما أورده ابن خلدون بشأنها. ولدينا تاريخ خاص عن الرستميين لأبي زكريا.





اكتشف ماسكوراي هذه المخطوطة ونشر ترجمتها سنة 1878. لكنه لم ينشر النص الأصلي. ولم يعثر عليه بين مخطوطات ماسكوراي بعد موته. وقد وعدنا الأستاذ زموغرزفسكي بنشرها في المستقبل. ولعله من المستهجن حقا أن نطاع على مخطوطة عربية بنصها الفرنسي فقط. ولو أخذنا الأمر على علاقته لاستطعنا أن نعثر عند ماسكوراي على تعليقات وحواشي توضح تاريخ الرستميين.

تمتد سلطة هؤلاء بعيدا نحو الشرق حتى مشارف طرابلس. ويتردد ذكر طرابلس في رواية أبي زكريا تردد اسم تاهرت.

دعا الرستميون حين شعروا بالتهديد سكان جبل نفوسة لمساعدتهم. وفي مجال حصار طرابلس هذا يسهب أبو زكريا في الحديث. أما ابن خلدون فلا يتطرق للأمر إلا لماما -يذكر أبو زكريا أن الإمام الرستمي كان ينصب الحكام وبعد الاجتماعات ويرئسها ومكث في جبل نفوسة سحابة سبع سنوات. ويوم حصار طرابلس "جميع كل من ذخل في طاعته بجوار طرابلس وجبل نفوسة والجبال المحيطة". ويضاف إلى ذلك جزيرة جربة. وقد سيطر الرستميون على جميع البلاد الطرابلسية المفتوحة على شاطئ البحر, ما عدا المدن التي ظلت على ولائها للاغالبة. ويذكر أبو زكريا كيف أن الإباضيين كانوا مسيطرين على الاتصالات الأرضية بين الاغالبة ومصر, ويأتي بقصة أغفلها ابن خلدون وذكرها النويري بإيجاز وهي أن إبراهيم الأغلب أراد أن يذهب بجيشه من القيروان إلى طرابلس, وكان ذلك نحو 865 أو 896. وأرسل لبني نفوسة يطلب إليهم السماح له بالمرور من ناحية الشاطئ عبر شريط ضيق يتسع له ولرجاله. ورفض بنو نفوسة تلبية رغبته. وانتهى الأمر إلى معركة قضى فيها عليهم وبدأ حكم الرستميين بالانهيار ولم يعمر بعد المعركة سوى عدة سنوات. ذلك أن هذه المنطقة الطرابلسية كانت إلى جانب تاهرت خير معين لهم.

وهناك نقطة أخرى مهمة هي منطقة اورغلا. فحين أرغم يعقوب آخر الرستميين على مغادرة تاهرت فر قاصدا اورغلا فبلغها بسهولة واستقبل على الرحب والسعة. وجرى له فيها استقبال عظيم, كان ذلك سنة 909. وكانت اورغلا ملجأ لآخر الإباضيين بعد انهيار مملكتهم. يقول أبو زكريا إن شيخ الإباضية كان يمضي الشتاء في وادي غير (اورغلا واحته الجنوبية) ثم يعود ناحية الصحراء قاصدا بني مصاب. ولم تعد اورغلا صالحة للسكن مع الوقت فانتقل الناس إلى الزاب حيث تجمع كل من بقي من إباضية الجزائر. وهناك عثر ماسكوراي على مخطوطة أبي زكريا.

ويقول ماسكوراي بحق: ما من واحة بين قابس وفجويج وسجلماسة إلا وهي مدينة بتطورها للخوارج، صفريين كانوا أم إباضيين الخ... لقد كانوا سادة الصحراء.

فهم صحراويون بكل معنى الكلمة إذ علينا أن نلاحظ أن تاهرت وسرسو الملحقة بها تابعتان للصحراء.

وليس في تاهرت اليوم سوى أثار رومانية. ويفترض غيزل أن الرومان قد أنشأوا فيها مراكز عسكرية على الحدود ثم منطقة سكنية للمدينة، ولم يجد في الآثار الباقية ما يؤيد فكرته. وكان لتاهرت أهمية كبرى في عهد السيطرة البيزنطية. ويشير غيزل نفسه إلى بقايا أسوار تعود إلى عهد قديم (عهد سيطرة الأمراء البربر قبل الرستميين).

ومن الناحية الأثرية البحتة هناك أثار الجدار جنوبي تاهرت في المينا العليا. وهي عبارة عن أضرحة شبيهة بتلك الموجودة في مدغاسن "وبقبر المسيحية" ولبكنها تعود لوقت متأخر عنها. وقد عثر فيها على كتابة إغريقية. كما استخدم في بنائها أدوات تعود لعصر سابق لها كبقايا هندسة مسيحية وكتابات منقوشة..ويستنتج غيزل أنها عاصرت العهد البيزنطي وينسبها إلى أهالي تاهرت.

وتاهرت في العهد البيزنطي كانت في نفس المكان الذي تقع فيه اليوم. وعاصمة الرستميين (تاهرت الجديدة) تبعد خمسة أميال غربي تاهرت القديمة. وإذا كان رستم قد أطلق على مدينته لقب الجديدة فهذا ما يؤكد أن المدينة القديمة ماثلة في الأذهان.

كانت مصادرنا حول هذه الأسرة البربرية مقتصرة على الآثار التي تركتها لو لم يرد ذكرها عند ابن خلدون: عندما قام عقبة بحملته الأولى على المغرب لم يصادف مقاومة تذكر إلا في موضعين، احد الأوراس حيث قتل لدى عودته وواحد في تاهرت. "وقد تحدى في تاهرت الأمراء البربر ومؤيديهم الفرنجة". وغيزل محق في اعتباره أن هؤلاء الأمراء البربر ينتمون لأبناء تاهرت.

وعلينا إلا نحصر كثيرا تاريخ هذه الأسرة الغامضة. وقد سبق لنا القول أن كسيلة ينتمي إليها. وتمكننا الإشارة أيضا إلى أن تاهرت كانت مركزا سياسيا هاما في الفترة التي رافقت ظهور الجمالين الرحل القادمين من الشرق والذين كان لهم شأن كبير في زعزعة أركان نوميديا.

تقع تاهرت على ارتفاع 1100 متر عن سطح البحر على سفح جبل التل التي يبلغ ارتفاعها 1200 مترا. ولا يقل ارتفاع المناطق المحيطة بها عن ألف متر. وشتاء تاهرت يمتاز





ببرودته وضبابيته ورطوبته وثلوجه. أي على عكس الصحراء تماما وهذا ما يجعلها قبلة أنظار الصحراويين: ولهذا تغنى بها هؤلاء وانشدوها ارق الأشعار كما ذكر ماسكوراي:"يروي أن عربيا قصد إلى تاهرت ثم ذهب بعدها إلى بلاد الزنوج ونظر إلى الشمس وخاطبها قائلا: أراك اليوم مزهوة، لكنهك كنت صغيرة جدا في تاهرت.

وهكذا تعتبر تاهرت والمنطقة المحيطة بها مركزا للاصطياف يقصده سكان الصحراء مع قطعانهم هربا من الحر الشديد.

وتاهرت اليوم إحدى مدن التل وتقع بجوارها بلاد سرسو الزراعية. ويقصدها البدو الصحراويون قادمين من أقصى الجنوب الشرقي من لربا في الاغواط. بعد أن يقضوا الشتاء في وادي الجدي بمنطقة تقع على شبكة طرق طبيعية تؤدي إلى الزاب من ناحية والى وادي غير من ناحية أخرى. وينتقل بنو لربا إلى تاهرت عن طريق شلاله. وهناك طريق أخرى من الجنوب التونسي ووادي غير تؤدي مباشرة إلى تاهرت عبر غور الزاب (بسكره) وهدنة. وعلى طول المنطقة من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي عبر الجزائر تمتد المراعي التي كانت تابعة لدولة الرسميين.

وتدل الطبيعة الجغرافية لتلك المنطقة أن تاهرت، مملكة للبدو الأقحاح.

وقد اختفى الإباضيون كفرقة دينية في تاهرت اختفاء تاما. في حين استمروا على شكل جماعات صغيرة في جبل نفوسه والزاب أي في المناطق الصحراوية. وليس الأمر وليد صدفة لان قوة الدولة الرستمية كانت في الصحراء.

ويكفي أن نذكر أسماء القبائل التي أنشأتها وساندتها. وكلها من البتر الشرقيين في معظمهم ممن لهم ارتباط بجنوبي تونس والمنطقة الطرابلسية. وهناك يحدد أبو زكريا مواقعهم وخاصة في جوار طرابلس. ومنهم قبيلة زواغة التي استوطنت جزيرة جربة. ويذكر ابن خلدون أن جماعات من قبائل لواتة وهوارة وزواغة كانت تقيم في سرسو على أبواب تاهرت وهي من اشد مؤيدي الرستميين. وأراضي تاهرت نفسها تعود إلى ملكيتها لقبيلة لماية الإباضية الشهيرة كجارتها مطماطة. ويقول ابن خلدون: "إن بني لماية كانوا بدوا يجوبون المواقع الإفريقية والمغربية غير أنهم عاشوا في ذلك الجزء من المغرب الذي يجاور الصحراء". كما ينسبهم لبني فاتن على غرار مطماطة. أي ينتمون لفئة استقرت في أواسط المغرب. على أننا بتنا نعرف بان معظم هذه الفئة -مثل قبائل تلمسان وشلف الواطئ- اجتذبتها فاس وأسيادها الأدارسة. فهل يحق لنا الاعتقاد أن بني يفرن -المنتسبين إلى زليطن أي المنحدرين من النوميديين المصاولة- لا يمتون بصلة

للبدو والطرابلسيين. ذلك من شأنه أن يتجاوز القرائن الايجابية القليلة التي نملكها.

على أن هذا القبائل الرستمية من البدو الرحل على كل حال. ويورد أبو زكريا مقابلة جرت بين فئة من لواتة وبين الخليفة عمر بن الخطاب بواسطة المترجم. سألهم عمر: "هل لكم مدن تعيشون فيها؟" فأجابوا: لا. وهل لديكم حصون تذودون فيها عن ممتلكاتهم؟ فأجابوا: لا. وهل لديكم أسواق تقومون فيها بالبيع والشراء؟ فأجابوا: لا. عندها أجهش عمر بالبكاء، لأنه تذكر إحدى نبوءات النبي حين قال: إن شعبا من الغرب سيخلف العرب ليس له مدن يسكنها ولا أمكنة محصنة يأوي إليها ولا أسواق يتاجر فيها. أنها أنشودة البدو يتناقلها الرستميون.

ويقول ابن خلدون إن الصفريين وحدهم قد وضعوا بتصرف الرستميين نحو ثلاثين ألف رجل كلهم بدو يعيشون تحت الخيام.

ويساعدنا أبو زكرياء على رسم صورة على الإباضية: شعره ذو ضفائر، يحمل مهندا مستقيما طويلا له حد أن قاطعان يختلف عن السيف واليطقان. كما يحمل خنجرا مربوطا بذارعه. وأظن أم ماسكوراي على حق في مقارنته مع ابن الطوارق حاليا. ويذكر لنا أن المرأة الإباضية مثقفة، مما يزيد في وضوح الشبه. ذاك أن المرأة عند الطوارق تحتل في علمها وثقافتها مكانة تختلف عن مكانة المرأة في بلاد المغرب. لقد عني ماسكوراي بالطوارق عناية كبيرة. وليس مستبعدا على كل حال أن يكون هؤلاء البدو الخوارج قد تركوا بعض ميزاتهم لطوارق الهقار وهم من تبقى من قبيلة هوارة.

ولنشر هنا إلى أن الخنجر المربوط باليد وجد في عهد كوريبوس وليس قبله. فلم يذكره المؤرخون ولم يظهر رسمه في الآثار القديمة. فهل يعني ذلك أن سلاح الطوارق هذا قد ظهر في العصر البيزنطي مع قبائل الجمالين الكبار، هنا أيضا ينبغي لنا إلا نتجاوز النصوص.

وأخيرا هناك حقيقة ملموسة هي أن مملكة الرستميين لم تتجاوز حدود الأراضي الوعرة والصحراء. وتاهرت هي رأس الطريق الطويلة الممتدة عبر التل المتجهة نحو البحر من ناحية المينا وهضبة منداس وشلف الواطئ.

ومن المؤكد أن برابرة شلف الواطئ بما فيهم أهل مأذونة كانوا من مساندي الأدارسة. ولم يكن لهؤلاء منافذ مفيدة على البحر فالناحية الطرابلسية كانت تحت حكم الأغالبة. ولم تغير مملكة الأغالبة هذه ملامحها منذ القرن التاسع. حيث كانت موطن





المناخ الجاف والعزلة الكبيرة والمراعي المجدبة. ويمكننا الاستعانة بما ذكره أبو زكريا لتضح لنا ميزات هذا الإباضي في طباعه العميقة.

لا يسعنا هنا أن نجاري ماسكوراي، تاريخ أبي زكريا وضع في الزاب بعد المملكة الرستمية وليس في عهدها. وأهل الزاب الحاليون من سلالة الرستميين لكن ملامحهم تغيرت خلال ألف سنة. إذ تعرضوا لهذا التحول الذي يعرفه المجتمع الشرقي. وعلى غرار الأرمن واليهود أصبح الزابيون بعد انهيار الإمبراطورية نوعا من قبيلة المتلاحمة الفخورة بأصلها رغم البعد بين أفرادها. والعامل الديني يفعل فعله في هذا المجال كما ازداد أثره مع الزمن. وتاريخ أبي زكريا شاهد على ذلك، فهو ليس الوثيقة التاريخية وإنما هو مجموعة من المتفرقات التي تروي ماضي الرستميين من وجهة نظر المثقفين من أهل الزاب. وهذا لا يفقد تاريخ أبي زكريا قيمته، ولكن ينبغي أن نقرأه بكثير من التمعن. ويقول الكتاب مثلا أن الجماهير الشعبية الموالية للرستميين لم تكن تحسن سوى البربرية ولم تكن قادرة على متابعة الجدل الديني بالعربية. وكانت على استعداد لقبول جميع القضايا اللاهوتية إذا ما اتفقت ومصالحها وأهواءها. وما يهمنا هنا أن نستخلص الطبيعة المتأصلة في الرجل البربري.

من المؤكد أن البربري والبدوي من ذوي الطباع الدينية. فالسلطان الرستمي كان إماما قبل كل شيء يدعي السلطة الروحية على العالم كله. كما أن نظام الوراثة في الدولة الرستمية كان ينتقل من الأب إلى الابن ولكن ليس بطريقة عادية إذ انه كان من الواجب في كل مرة أن يجري استفتاء شعبي لمبايعة الحاكم الجديد. ومن الغريب حقا أن سلالة الرستميين لم تتصدع رغم القلاقل الموجودة على الرغم من أن الإمام معرض للعزل في كل وقت إن هو خالف الشريعة الدينية. وقد أتت حركات العصيان شكل الانشقاق الديني. غير أن هذه الانشقاقات، رغم كثرتها لم تكن خطيرة في عهد الرستميين. غير أن طبيعة الحكم في دولة الرستميين لم تكن مختلفة عن حكم الخلافة في بغداد فالخليفة بدورها زعيم روحي.

يقول أبو زكريا: كانت خيول الإباضيين من ممتلكاتهم الخاصة فالخزينة العامة ليست تحت تصرفهم الشخصي، وهم يكسبون خبزهم بعرق جبينهم فليس هناك إذن جيش نظامي أو إدارة مركزية.

"كتب بنو نفوسة للإمام يخبرونه بنبأ موت حاكمهم طالبين اختيار خلف له. فأجابهم أن عليهم اختيار أصلح من فيهم لرعاية شؤون المسلمين، ثم إرسال اسمه للإمام".

ويشير مقطع أورده أبو زكريا انه لم يكن للإمام حرس خاص. فالقاضي الرستمي يتعرض للإهانة من المتقاطعين إن لم يوجد شخص في المحكمة يتبرع للدفاع عنه.

ولا يصعب علينا تفسير هذه الظاهرة طالما أن دولة الرستميين قامت في المناطق الوعرة ولم يكن لها ميزانية عامة. ومن الطبيعي أن ينمو شعور التقشف في جو كهذا الجو.

ويخبرنا أبو زكريا كيف أن أبا زكريا كان يبني بيده يعاونه عبده، وقد استقبل السفراء الشرقيين وكان فوق الجدار فنزل إلى الأرض وغسل يديه في الجرن وسلم عليهم ودعاهم إلى عصيدة أعدها بنفسه.

كما يخبرنا كيف أن الرستمي كان يستعمل عمامته كفتيل للمصباح حتى مطلع الفجر في الليلة التي يعكف فيها على المطالعة. كما كان الحاكم الرستمي يرفض الهدايا التي تقدم إليه من المشارقة. لأنه يفكر بمصيره في الحياة الأخرى.

كما يحدثنا أبو زكريا عن زيارة قام بها الإمام الرستمي إلى رجل من الإباضية اسمه المهدي. فوجد بيته خاويا من كل شيء يستطيع بواسطته أن يقي الإمام من البرد وكان متفرغا للعبادة كل التفرغ. ثم زار منزل احد أبناء عم المهدي وكان من الموسرين وقد أثث منزله بأحسن أنواع الرياش والسجاد. فقال الإمام:

يا مهدي، إن الجنة من نصيبك.

وقد فرض الإباضيون عقوبات صارمة على أهل الشر: فالزاني يرجم والسارق تقطع يده.

ويسود القانون نفسه ارض المعركة فلا سلب ولا قتل دون مبرر. وهذا يجعل الإباضية مختلفة كل الاختلاف عن الصفرية.

وقد تحدث ماسكوراي عن الشبه بين الإباضية والوهابية التي ظهرت في القرن التاسع عشر في أواسط شبه الجزيرة. وكتب عنها بلغريف كتابا موفقا. ذاك أن الوضع الجغرافي متشابه فهنا وهناك نجد بدوا بعيدين عن البحر يعيشون على قحط الصحراء. فالبدوي الذي لا يسيطر على مدينة من المدن هو اشد الناس فقرا. وهو ميال للعزلة والتقشف وشديد الشغف بالفضيلة، ذاك انه يحول بؤسه لتطرف ديني.

وهناك عنصر ضروري آخر هو عنصر الاستقرار. ومغرب الرستميين كان هادئا إذا ما





قيس بالتاريخ الصاخب الذي عرفته تلك البلاد.

ولم يكن الأدارسة في الغرب والأغالبة في الشرق ليعنوا بالرستميين. ذاك أن الأدارسة وجهوا قوتهم التوسعية نحو الجنوب المراكشي وصب الأغالبة انتباههم على صقلية. وقد ذكر ابن خلدون والنويري لماما بعض الإيضاحات عن موقف الأغالبة كلما كانوا يدون لمهاجمة البدو.

وقد قام أول الأغالبة حين كان حاكما على تبنة وفي عهد أبي قرة بمحاولة للاستيلاء على تلمسان ثم على طنجة لكن الجيش تخلى عنه واضطر للتراجع. وإبراهيم بن الأغلب وهو واحد من أواخر ملوك هذه السلالة غزا طرابلس سنة 894 على رأس جيش أراد أن يبلغ به مصر. ويقول النويري إن أكثر من نصف جيشه تخلى عنه عائدا إلى افريقية. فاضطر بدوره للتراجع.

ويبدو أن فظائع الخوارج قد جعلت الناس يملون القتال طيلة القرن التاسع. وقد عاشت زناتة في ظل الرستميين حياة تأمل وتصوف وسط الصحراء. وانتصر الإباضية معتدلو الخوارج. غير أن البدوي الذي يشعر بالحرمان في أعماقه لابد وان يتحول من الاعتدال إلى التطرف. وسرعان ما قامت دولة المتطرفين.

# 5 - نشأة الخلافة الفاطمية وقبائل كتامة

## الفاطميون

بوسعنا الآن إلقاء ضوء على تاريخ الخوارج. لقد كان تاريخا حافلا بالأحداث وضع حدا لحكم الخلفاء في المغرب. فلم يعد عامل الخليفة الشرقي هو الذي يعين الحاكم ويعزله كيف شاء. وليس بمقدور الجيوش الشرقية لن تعبر افريقية انطلاقا من مصر. وصحيح أن معركة القرن أنقذت الإسلام في المغرب لكن معركتي شلف وسبع قد كسرت الطوق الذي لم يلتئم مرة أخرى. ولابد لهذه المعارك الثلاث أن تستحوذ على انتباهنا نظرا لارتباطها بمعركة بواتييه.

ومصدر هذا التحول في الشرق عند العباسيين المحبين لفارس والذين خلفوا الأمويين.

ثم إن الخوارج جعلوا المغرب يستعيد نفسه. ولم يعد يحمل من الفاتح العربي غير دينه أي حضارته. ولم يعرف فاحا آخر قبل مجيء الأتراك. أنها حقبة فريدة من نوعها في تاريخ غزوات طويلة الأمد. حقبة تسنى فيها للمغرب أن يستعيد نفسه وتكوينه ويشكل عناصر الوطن.

واتخذت البلاد على الفور شكلا ميزا طبيعيا. وتبلور كلا العنصرين البشريين اللذين يكونانه. فالمدن القديمة المطبوعة بطابع الحضارة البونية والرومانية انقسمت إلى مملكتين قامتا على طرفي البلاد: مملكة الأدارسة في فاس ومملكة الأغالبة في القيروان. وبينهما كان البدو في ظل الرستميين يعيشون في عزلة لا يؤثرون في جيرانهم ولا يؤثر جيرانهم عليهم. والفارق كبير بين فريق البدو وفريق الحضر. وقد سادهما نوع من الاستقرار الذي دام قرنا كاملا. ولكنه كان استقرارا متقلقلا. فالحياة السياسية في بلد حضارته شرقية لابد وان ترتكز على تعاون البدو والحضر. ولا يمكن لهاتين الفئتين أن تعيشا متباعدتين إلى الأبد. ومن الطبيعي أن تنجذب واحدهما نحو الأخرى ليحدث الانفجار قبل أن يتحقق الانصهار. وينبغي لنا أن نعثر على فترة الانصهار هذه. فتلك المعضلة الأولى.

حدث خلل في التوازن نحو سنة 900 في الفترة التي بدأت فيها ملحمة الفاطميين.

واهم حدث ميز العصر الوسيط الأول هو قيام دولة الفاطميين في المغرب. فقد خلق هذا الحدث تحولا كبيرا في العالم الإسلامي بأسره. كان أثره أعظم من أي اثر آخر قبله وبعده.

## المهدي عبيد الله.

لابن خلدون رواية خاصة عن ظهور الفاطميين تتفق ورواية ارنست مرسييه. ففي البداية تفسير لنشأة هؤلاء وكيف أنهم متحدرون من فاطمة بنت النبي وزوجة علي. وهم أحفاد المهدي عبيد الله مؤسس الأسرة في مراحل اغترابه في شبه الجزيرة ومصر وطرابلس ثم في المغرب. ولطالما سعى الخلفاء العباسيون لقتل هذا الرجل.

وبينا المهدي مختبئ، عثر احد دعاته كما يسميهم المؤرخون العرب على موقع مناسب في إحدى نواحي المغرب. اسم الداعية عبد الله. والمكان المناسب في الأرض التي تملكها كتامة.

وتاريخ المهدي الهارب وداعيته الأمن مفعمة بالطرافة والمبالغة. وقع المهدي أثناء هربه في الأسر عند ملك صغير في إحدى الواحات النائية التي لا علاقة لها بالأمر: كان ذلك في تفيلالت عند قبيلة سجلماسة. واستطاع الداعي أبو عبد الله على رأس فرقة من كتامة أن يقتحم المكان الذي سجن فيه المهدي ويقسم يمين الولاء له ويصعده على ظهر الحصان. ثم يمشي أمامه ودموع الفرح تنهمر من عينيه وهو يهتف: هذا مولانا، هذا مولانا.

وخلاصة الرواية أن قبيلة كتامة تبنت قائدا قادما من الشرق. والغريب أن قصصا مماثلة قد حدثت في المغرب مرتين أو أكثر كما رأينا.

فهذا إدريس سليل علي وفاطمة أيضا يأتي المغرب لاجئا، ثم يصبح ملكا على القبائل البربرية في وليلي، ويؤسس أسرة الأدارسة وأول مملكة في فاس.

وهذا رستم الفارسي، شرقي آخر متحدر من كسرى يؤسس بين زناتة أسرة الرستميين، أي مملكة الخوارج الإباضيين في تاهرت التي يتحدر منها أهل الزاب الحاليون.

فالقصة تتردد دائما على هذا النحو في المغرب: نبيل من المشرق طريد تجتمع حوله قبائل المغرب. ونجاح الغريب يتفق مع القول المأثور: لا كرامة لنبي في وطنه. ولاسيما وان المغرب موطن خصب لاستقبال الأنبياء، ذلك انه طيلة ألفي عام سار في ركاب قواد من





الخارج. وإذا كان المغرب قد قاوم الإسلام فانه لم يبد في ذلك شخصية مميزة. وراح يبحث عن زعمائه ورياته في بلاد ما بين النهرين.

على انه لا الرايات ولا شخصيات الزعماء هي التي تهمنا في هذا المجال.

ومن المبالغة الشك في صحة وجود المهدي عبيد الله وداعيته عبد الله. فهناك مغامرون من هذا النوع حملوا هذا الاسم أو أن الأحداث حملتهم إلى ذلك. ومن المؤكد على كل حال أنهم جاؤوا المغرب بمذهب إسلامي جديد هو المذهب الشيعي. ولابد لنا أن نتطرق قليلا إليه.

## المذهب الشيعي

للمذهب الشيعي نقطة التقاء مع المذهب الخارجي من حيث أساسه وطابعه اللاهوتي. فحين قتل علي بن أبي طالب على يد احد الخوارج رفض الكثيرون من أتباعه الاعتراف بمعاوية كخليفة شرعي وظلوا على ولائهم لأبناء علي. فالمذهب الشيعي تماما كالمذهب الخارجي والدوناتي لم يكن في البداية سوى حركة منشقة ونتيجة اصطدام بين أشخاص وحرب بين زجال دين. وهي حركة انشقاق شرقية يرجع عهدها للفترة الأولى التي رافقت ظهور الإسلام. غير أن هذا المذهب لم يحافظ على طابعه في الشرق. بل أصبح الراية التي انضوى تحتها الفرس ليعبروا بطريقة تختلف نوعا عن الطريقة السامية في مجال الفلسفة والإيمان بالله. أما في المغرب فلم يكن للمذهب الشيعي أي طابع عقائدي خاص.

ويختلف هذا المذهب اختلافا ظاهرا عن المذهب الخوارج. فلا يعرف بهذا التقشف الشديد وذاك التطرف الديماغوجي اللذين يتسم بهما الخوارج. بل هو على العكس من ذلك مذهب تسامح ومصاحبة. وقد نسب لشيعة المغرب بعض الانحلال في العادات. لهذا لم يضرب هؤلاء لهم جذورا عميقة في هذه البلاد.

على انه ليس بمقدورنا اعتماد اعتبارات كهذه، لان البربر الذين بلغوا السلطة في عهد الفاطميين ليسوا بعد الآن من زناتة وإنما ينتمون للفئات المناوئة لها. وقد لزوم لهذه الفئات مذهب ديني جديد في الوقت الذي كانت المذهبية الدينية تقرر الأمور السياسية. الأمر الذي يسر ظهور المذهب الشيعي. على أن أي مذهب آخر كان قادرا على أن يلعب الدور نفسه.

ولا تعنينا على كل حال شخصية عبيد الله أو ميزة المذهب الشيعي. وقبيلة كتامة هي التي أعطت حركة الفاطميين الطاقة اللازمة لها إذا صح هذا التعبير الصناعي.

## موطن كتامة

لم تظهر قبيلة كتامة في التاريخ العربي منفصلة عن قبيلة أخرى صنهاجة. وقد ذكر المؤرخون هاتين القبيلتين معا في أكثر من مكان. ويذكر ابن خلدون وراءهما بني زواودة المقيمين بين باجة ودالس على مرتفعات شاهقة ومليئة بالغابات بحيث لا يستطيع المسافر إليها أن يهتدي لطريقه. وكان بنو زواودة حلفاء لقبيلة كتامة منذ قيام الدولة الفاطمية.

وكتامة وصنهاجة والزواودة كانت نقيم في منطقة القبائل المعروفة اليوم، وهي موريتانيا الرومان. وهي منطقة طبيعية حملت لواء استقلال المغرب. وقد آن الأوان لتظهر موريتانيا، القبائل على المسرح، فهي التي احتلت المكان الأول عدة قرون وحاولت إثبات وجودها وودود المغرب.

ومكان كتامة معروف في المجموعة الموريتانية. وقد عدد ابن خلدون مدنها سطيف وميلا وقسنطينة وكولو وجلجي. كما أرجعها لجدها كتام ثم وصل إلى ايتاو التي تضم جميلة وجميلة اسم قبيلة وقد أعطي لخرائب كيكولم. ويذكر بطليموس هذا الاسم باليونانية. وهناك كتابة منقوشة باللاتينية بفدولاس بين ميلا وجلجي تسميها اوكلماني. وحدود هذه القبيلة واضحة، حيث تقع في الطرف الشرقي لبلاد القبائل الصغرى بين سطيف وجلجلي وبين بابور وقسنطينة. تلك هي النقطة التي نشأت فيها الدولة الفاطمية وهو أمر يثير العجب. وليس لهذه البلاد ميزات خاصة سوى أنها جبال كسائر جبال القبائل ولكن ما يفرقها عن غيرها أنها تقع عند الطرف لشرقي لموريتانيا وقد كانت لأمد طويل على اتصال مباشر بموطن الثقافة القرطاجية والرومانية. ففي عهد الإمبراطورية الرومانية كان الوادي الكبير الحد الفاصل بين نوميديا وموريتانيا أي جبال كتامة التابعة السهول بون (عنابة) وهو مركز حضاري قديم. وكانت سرنا أي قسنطينة حاليا وهي أقدم مدن الجزائر تقع في تلك المنطقة المتصلة بجبال كتامة.

وهي المنطقة المعرضة أكثر من غيرها لإشعاع الحضارة القرطاجية. وقد جرى تنظيم البلاد إداريا في وقت متأخر على أساس أنها موريتانيا سطيف. ذلك أن اثر البونيين واللاتين فيها قد جعلها مختلفة عن نوميديا وعن موريتانيا نفسها. وكانت المدن اللاتينية تحيط بها من كل صوب ومنها سرتا وسطيف وميلا وكوكولم. الخ... إلى جانب المدن





الساحلية التي كانت مرافئ فينيقية وقرطاجية مثل كولو وجلجي. كما كانت على اتصال من جهة الجبال مع مغاربة منطقة القبائل الصغرى وهم أشباه القبائل حاليا وقد كان بروكوب يعجب من بربريتهم: "وكانوا يعيشون في أكواخ ضيقة في الصيف والشتاء. ويفترشون الأرض، أما أغنياؤهم فينامون على الجلود. ولباسهم عبارة عن مئزر بشع ومعطف قديم... ولا يملكون الخبز أو النبيذ أو أي شيء لذيذ... ويأكلون الحبوب غير مطهية كالحيوانات..". ويمكننا في أيامنا هذه أن نعثر في مخلاة رجل القبائل على بعض حفنات الدقيق يلتهمها نيئة طيلة النهار ويمضغها بأضراسه القوية ولا يتناول شيئا غيرها.

هذا التداخل بين الوحشية والحضارة هو الذي يجعل البربر مهيبي الجانب. أنهم جماعات بشرية ولها قدرة الحيوان على المقاومة وتحت نصرفها إنتاج حضارات قديمة في نفس الوقت. أنها سنة التاريخ. فالفرنجة مثلا لم يكونوا غير ذلك. أن حواشي البلاد القديمة المنهكة امتن من داخلها. وفي تلك الحواشي تتكون دول جديدة سبق أن شارفت على الزوال.

لقد حاول المغرب إعادة بناء نفسه على أطراف افريقية، وفي نوميديا أولا ثم في بلاد كتامة.

وقد كان تاريخ كتامة بمثابة حقبة رائعة ومخيبة للآمال في آن معا.

وصل أبو عبد الله الداعية نحو سنة 890 ميلادية. أنها بداية الحركة بعد مضي قرنين على دخول الإسلام بلاد المغرب. فمنذ قرنين والعرب يحكمون سعيدا كل افريقية. النقطة الوحيدة التي شعروا فيها وكأنهم في ديارهم. وكان يتولى شؤون افريقية حكام يختارهم الخلفاء إلى أن جاء وقت استطاع ابن الأغلب احد هؤلاء الحكام أن يقيم حكمه بنفسه ويؤسس دولة الأغالبة دون خوف أو وجل. لكنها سلالة عربية محضة. وكان الأغالبة في ذلك الوقت قد ركزوا حكمهم بعد استيلائهم على صقلية، لكن حكمهم بدأ يهرم بعد أن مضى عليه أكثر من مئة عام وهي فترة طويلة بالنسبة للأسرة الحاكمة عند المسلمين. فابن خلدون يحدد عمر هذه الأسرة بثلاثة أجيال. وقد تصرف آخر الأغالبة كالمجانين الدمويين.

وكانت بلاد كتامة تابعة لدولة الأغالبة وتقع عند طرفها. وقام بنو كتامة بثورتهم ضد هؤلاء.

## اكدجان

يقول ابن خلدون أن مدينة اكدجان تقع في أراضي بني سقيان وهم فرع من قبيلة جميلة. وفي اكدجان اندلعت الشرارة الأولى في المغرب أولا ثم في العالم الإسلامي بأسره. أنها معقل التمرد. واسم جميلة كاف لتوضيح الأمور لأنه مرتبط بآثار كوكلم. وينبغي أن تقع اكدجان في تلك المنطقة ولكن في أي مكان بالضبط؟ ونبحث في أطلس الآثار الذي وضعه غيزل، كما نسمع فيرو يؤكد انه تعرف على اكدجان.

ويرى ج.مارسيه أنها بجوار قرية شفرول. وفيها نقطة تدعى بالعربية ضربة الكلب وكلمة اكدجان تعني الكلاب. وليس في المنطقة خرائب ظاهرة غير أن السكان يذكرون اسم اكدجان. هذا كل ما بقي من أثار المنطقة التي انطلق منها الفتح الفاطمي !

ودور اكدجان الواقعة في المكان الذي ذكرناه يبدو واضحا. ففي العصور الحديثة لم يستطع الأتراك الولوج لمنطقة القبائل الصغرى إلا بعد أحداث خراب كبير. وهناك محاولة لعثمان في الوادي الكبير تسقط فيرو أخبارها، كما سمع هذه الطرفة عن جبلي القبائل: وهي أن احد الرجال تخاصم مع جاره على قضية فطلب من احد الأشخاص المقيمين مجددا في المنطقة أن يسرد له قائمة من الشهود تثبت حقه فرفض هذا الأخير. بعد ذلك بأيام عاد القبلي إليه مالئا كلتا يديه وقال له: انظر، في يدي هذه خمسة دراهم ادفعها ثمنا للورقة التي طلبتها وفي يدي الأخرى خمس رصاصات سأضعها في بندقيتي وبنادق أبنائي لنطلقها عليك إن لم تلب ما طلبناه". في صبيحة اليوم لتالي غادر الرجل الغريب المكان إلى منطقة اقل همجية.

ورجال القبائل هؤلاء يشابهون بوحشيتهم أولئك البدو الرحل. حتى أن السلاطين والوجهاء، لم يستطيعوا فرض سلطتهم عليهم.

يقول فيرو أن السلاح الوحيد الذي كان يستخدمه الأتراك ضدهم إلقاء القبض على رجال القبائل العاملين في قسنطينة والاحتفاظ بهم كرهائن ردا على الإساءات التي يقوم بها إخوانهم في الجبال وكثيرا ما كانوا يحكمون عليهم بالإعدام.

وكانت العلاقات بين السلاطين الأغالبة وبلاد كتامة على هذا النحو.

في الفترة من الفترات الحرجة قصد أبو عبد الله الشيعي إلى اكدجان ليحتمي فيها. وزحف القائد الأغلبي لإخضاعه. لكنه صادف صعوبات جمة كلما توغل في بلاد كتامة واضطر في النهاية للانسحاب.





وقد أدرك المؤرخون العرب أن هؤلاء القبائل بعيدو المنال. ويقول ابن خلدون: "ما من شيء تغير في مواقف كتامة منذ دخول الإسلام وحتى عهد الأغالبة. فلم تكن هذه القبيلة تشعر بالخوف نظرا لكثرة عددها". ويؤكد هذا الرأي ابن الرقيق في تاريخه.

وانه لأمر يثير العجب عجز الحكام العرب والأتراك عن إخضاع أبناء القبائل. على أن اكدجان لا تحتاج لبحث طويل، ففي قلب منطقة القبائل الصغرى كانت المعقل الذي لا يمكن اقتحامه.

## سقوط الأغالبة

كان وصول أبي عبد الله كما أورد ابن خلدون في سنة 893. وفي سنة 902 تورط احد القادة الأغالبة بمهاجمة المناطق الجبلية بغية الوصول إلى اكدجان. ثم بدأ بنو كتامة الهجوم وقد وقع على عدة مراحل. ففي ابريل 909 استولى جيش كتامة على القيروان بدون قتال وفر منها آخر الأغالبة وسك فيها أبو عبد الله أول النقود الفاطمية. بعد ذلك بأشهر أي في ديسمبر وصل المهدي نفسه القيروان حيث جيء به من سجلماسة وأصبح أول سلطان فاطمي. وكان أول عمل أقدم عليه أبو عبيد الله المهدي قتل أبي عبد الله الذي مهد له طريق الحكم. وقد خاطبه قتلته قائلين: ها إن الذي دعوتنا بالخضوع له يأمرنا بقتلك.

لكن المهدي لم يستطع التملص من نفوذ كتامة التي جعلته سلطانا ولا يمكنه بدونها أن يفعل شيئا. وقد كافأ زعماء كتامة بتقديم خدمات كبيرة لهم كما وزع عليهم مبالغ من المال وعددا من الجواري الجميلات، وأوكل إليهم مراكز قيادية مهمة.

وهكذا وقعت افريقية التي عرفت نظام الدولة في عهد الأغالبة وقعت في يد الفاطميين مع المنطقتين الملحقتين بها وهما طرابلس وصقلية. "وانتظمت مكاتب الحكومة وأمر نظام الجباية بدقة وعين الحكام في جميع المدن يساعدهم الموظفون"، وبين عشية وضحاه أصبح الفاطميون أسياد كل شيء وذلك بفضل كتامة التي لولاها لم يتحقق شيء.

## المهدية

وكان من نتائج الانتصار بناء مدينة جديدة هي المهدية. لقد قصد المهدي بنفسه المنطقة الساحلية لاختيار عاصمته بعد أن زار تونس وقرطاجة. ووصل إلى شبه جزيرة لها شكل يد متصلة بقبضة فاختارها موقعا لمدينته الجديدية. وبدأ العمال البناء في

يونيه 916. واعدت في الهضبة ترسانة تتسع لمائة سفينة حربية كما حفرت المستودعات والمخازن. وارتفعت البيوت والقصور، وانتهى العمل بين 918 و919. وبعد أن أنهى المهدي مهمته هتف: الآن صرت مطمئنا على مصير الفاطميين.

هذا ما أورده المؤرخون العرب، ومن المألوف كما رأينا أن يعمد كل حاكم جديد لبناء عاصمة جديدة. لكن هناك أسباب تكمن وراء الاختيار.

فالقيروان كانت عاصمة الأغالبة، كما كانت عاصمة القواد العرب. وتقع وسط السهل في حين كان بالإمكان جعلها في المرتفعات على مسافة قريبة. غير أن البدو بطبيعتهم يفضلون السهول. فلم تكن المدينة إذن قلعة محصنة وإنما مخزنا ومسجدا. ثم إنه جرى الاستيلاء عليها مرات عديدة طيلة حياتها التي استمرت قرنين ونصف القرن. فمن الطبيعي أن لا يرغب القبائل الجبليون بالإقامة فيها.

وفي السنوات الأخيرة التي مرت على عهد الأغالبة أي نحو 890،وقعت حركة تمرد في تونس وضواحيها عند بدء حركة الفاطميين. وإثر حركة العصيان هذه أمر السلطان إبراهيم بن الأغلب -بعد أن قمعها بشدة- أن تبنى له في تونس قصور تصلح مكانا لإقامته. سرعان ما انتقل إليها بصحبة القواد والعلماء. وقد فكر آخر الأغالبة جديا ببناء عاصمة جديدة.

وقد رأينا كيف أن عبد الله المهدي قد زار تونس وقرطاجة خلال بحثه عن العاصمة الجديدة. ولا بد لاسم قرطاجة وتونس أن يتردد دائما في مجال بناء المدن الجديدة. لكن الفاطميين حين هجروا القيروان لم يتجهوا إلى تونس، إذ لا تستطيع أية سلطة تعتمد القبائل الجبليين إلا أن تتجنب هذه المدينة الحضرية والصناعية.

وهكذا فرضت فكرة بناء المهدية نفسها. وتم ذلك على الساحل التونسي في منطقة لا نظير لها في سائر المغرب. فخليج سرت فريد من نوعه، لان البحر هناك مليء بالجزر ومياهه غير عميقة وهي ذات طبيعة جغرافية مميزة، وهكذا أصبح المغربي ساكن البر دائما من سكان السواحل. وعاشت هناك فئة من الناس تصح تسميتها بالبرمائية تعيش على الزيتون وصيد السمك. أنها النقطة الوحيدة التي ظل فيها الشعب البوني عاشقا للبحر. وفي منطقة ليست بعيدة عن شاطئ المهدية جرى انتشال مركب روماني غرق منذ ألفي عام وكان محملا بأحلى التماثيل البرونزية الإغريقية التي تزن الآن متحف العلوي. ويدل العثور عليها أنها واقعة في مكان يؤمه الغطاسون وصيادون الإسفنج.





لقد أثبتت مدينة المهدية جدارتها حيث أشرفت على البحر دون أن تفقد البر. ولاسيما وان الأغالبة أسياد صقلية قد تركوا للفاطميين أسطولا بحريا. وهكذا كان اختيار موقع المدينة موفقا جدا.

وكان على المهدية على كل حال أن تخوض التجارب. ففي سنة 945 حاصرها أبو يزيد صاحب الحمار. كان ذلك في فترة عظيمة الحرج في تاريخ الفاطميين، حيث اضطر هؤلاء للانحسار وتجمعوا في المهدية نفسها.

ويروي المؤرخون عن عبيد الله المهدي انه ما أن ارتفعت أسوار المهدية حتى وقف لمهدي على احدها وأطلق سهما باتجاه الغرب وأشار إلى المكان الذي وقع فيه وقال: "هذا هو المكان الذي يستطيع صاحب الحمار بلوغه".

ويقول "البيان" إن صاحب الحمار قد تقدم كثيرا حتى بلغ أبواب المدينة. فشاهده احد جنود المشاة فأسرع راكضا إلى السلطان. فوجده يعبث بسمكة داخل إناء. فخاطبه قائلا: أراك تلعب وراكب الحمار طرق برمحه باب مدينتك؟ فأجاب السلطان: -هل أنت متأكد من ذلك؟ فقال: طبعا ! فقال الأمير: لن يرجع سالما لان ساعته قد أتت. هذا ما قرأناه في كتبنا. ثم أمر بمهاجمته على الفور.

ولما تحقق النصر النهائي على يد السلطان المنصور، انس هذا من نفسه القوة وقرر العودة إلى القيروان أو بالأحرى إلى أحد أحيائها وأطلق عليه اسم المنصورية وتضررت المهدية كثيرا من هذا التدبير لان معظم أحيائها أصبحت خاوية كما قال البيان لكنها حافظت على وجودها وأصبحت بمثابة مرفأ للقيروان وقد عززها موقعها الحصين والسمعة التي اكتسبتها بعد الحصار.

وفي العاشر من يونيه سنة 973 استولى الخليفة الفاطمي على مصر وقرر الاستقرار فيها بعد أن هجر المغرب نهائيا. وبين 918 و973 كانت المهدية والمنصورية من أهم العواصم التي عرفتها افريقية أو تونس الفاطمية. حيث أصبحتا مركزين للخلافة وليس للسلطنة فقط.

## معنى انتصار الكتاميين

لأول مرة نرى قبيلة بربرية تأخذ الحكم من العرب، لا في المغرب وحسب بل في المشرق أيضا. أنها ثورة عارمة من صنع الكتاميين أولا. وذلك بإجماع المؤرخين.

فقد أشار ابن خلدون إلى الدور الكبير الذي لعبه الكتاميون وقال: "إن ثورتهم قد

قضت نهائيا على الدولة العربية في افريقية، وأوصلتهم إلى سدة الحكم. وقد حذا برابرة المغرب حذو جيرانهم، وبدأ نفوذ العرب يتقلص في افريقية والمغرب وانتقل الحكم إلى البربر".

والكتاميون هم الذين اقفلوا نهائيا حركة الفتح العربي وقبلوا التيار رأسا على عقب. وذلك هو مدلول انتصار الفاطميين.

والكتاميون هم الذين صنعوا الثورة التي قادها عبيد الله وخلفاؤه. وعلينا أن ندرك أن هؤلاء كانوا وراء تخلص المغرب من فاخيه الأجانب. وذلك حدث فريد في تاريخ المغرب. فالأول مرة منذ ألفي عام استطاع أبناء البلاد طرد الدخلاء بأنفسهم.

على أن هؤلاء الكتاميين يحملون قناعا أجنبيا، فلو ولجنا إلى باطن الأمور لوجدنا أن الخضة التي عرفها المغرب بدأت في زاوية صغيرة ببلاد القبائل واقعة في رقعة مثلثة بين سطيف وجلجلة وقسنطينة. زاوية نسيها العالم على الأرجح لكن هذا المثلث الصغير ما زال يحمل أثارها. وبوسعنا لو زرنا المكان أن نحدد موقع لهزة تحديدا حقيقيا.

## زوال القبيلة

يقول ابن خلدون في القرن الرابع عشر أن اسم كتامة زال من الوجود. وقد علل أسباب هذا الزوال:

"حين أنشأ بنو كتامة جولتهم في الغرب انتقلوا إلى الشرق حيث استولوا على الإسكندرية ومصر وسورية. وبعد أسسوا مدينة القاهرة قص

ها خليفتهم الرابع المعز وأقام فيها مع ذويه. وأصبحت دولة الكتاميين ذات بأس فغرق هؤلاء في حياة البذخ والترف وكان قسم منهم قد بقي في موطنهم الأصلي... ومن أهم القبائل الكتامية قبيلة سدويقش. ويقطن السهول الواقعة بين قسنطينة وباجه.. وهي تنكر أصلها الكتامي دفعا لعار الانتماء إلى المذهبية الشيعية في حين أنها تنتسب لكتامة فعلا: وهذا ما يؤكده مؤرخو قبيلة صنهاجة، كما أن الموقع الإفريقي الذي تسكنه قبيلة سدويقش يشهد بذلك".

ويؤكد فيرو نظرية ابن خلدون هذه. ويلاحظ أن اسم كتامة قد اختفى منذ وقت طويل لأنه أصبح مرادفا للشتيمة حيث يعني: "المتاجر بالأعراض والجاحد والذليل".

ومن الطبيعي أن ينكر جميع سكان البلاد انتسابهم لهذا القبيلة. على انه ليس من المستغرب احتفاء الكثير من القبائل، فهي قاعدة معروفة في تاريخ لمغرب. إذ اختفت





قبيلة بني كومية وهم مؤسسو دولة الموحدين، كما اختفت قبيلة صنهاجة الصحراوية مؤسسة أسرة المرابطين. ويعود إنشاء الدولة لقبيلة واحدة، لان القبيلة هي الخلية التي تكون جسم الجهاز السياسي وهي الجزء الحيوي الوحيد. وليس شرف إنشاء الدولة طويل الأمد لان القبيلة نستنزف نفسها في الحرب من جهة وفي ملذات السلطة من جهة أخرى. تلك هي قاعدة ما برحت تتردد منذ القدم في بلاد المغرب. واليك مثالا خاصا على ذلك في قبيلة كتامة.

إن ما اختفى منها هو اسمها وذكراها وتقاليدها وشخصيتها الجماعية لكن العنصر البشري لا يتبدد بسهولة، وبالإمكان العثور على بقايا القبيلة ضمن حدودها الجغرافية الأولى.

يقول فيرو: لا يعثر في بلاد القبائل الشرقية -كما في الغربية- "على تلك القرى الكبيرة المكتظة بالسكان، والبيوت المبنية بناء محكما بلونها الأبيض وسطوحها المسقوفة بالآجر والتي تشير إلى بحبوحة في العيش. ففي المنحنى الشرقي ابتداء من بابور وحتى ادوج بجوار بون (عنابه) لا نرى سوى أكواخ متواضعة يعيش فيها البشر والحيوان معا". ويقول دوتيه أن أبناء هذه المنطقة هم اشد الجزائريين بدائية. ومنطقة القبائل الصغرى شرقي بابور هي موطن قبيلة كتامة بالضبط.

ويشكل هذا الموقع تعاكسا اقتصاديا مع باقي بلاد القبائل، ولما هو عليه من تأخر.

يضاف إلى ذلك -كما يقول فيرو- انه ابتداء من بابور باتجاه الشرق "تتغير اللغة أيضا. فلغة القبائل لا يفهمها و لا يتكلمها احد. أما اللغة الشائعة فهي اللغة العربية التي تتخللها بعض التعابير الدخيلة التي تحتاج بعض الوقت لفهمها. وقد أجرى فيرو دراسة صغيرة عن هذه اللغة المحلية وأورد بعض النصوص كشواهد.

هذا وأجزاء المغرب التي تتحدث بالعربية، لم تتعرف على لغة الضاد في وقت واحد. ففي تونس وسهل عنابه كما أسلفنا تلاحم بين العربية والبونية، وعلى كل حال فان اللغة العربية قد دخلت إلى المدن الرومانية البونية في عهد الخلفاء. وليس من المعقول أن تكتفي المدينة بلهجة محلية إذ يلزمها لغة فعلية. وعلى المرتفعات الجزائرية العالية نلاحظ أن استعمال اللغة العربية جاء متأخرا. ويفيد ابن خلدون بأن ظهورها لا يتجاوز في قدمه القرن الرابع عشر أو الخامس عشر. أما في جبال بلاد القبائل الصغرى فيختلف الحال والتاريخ. فمن الواضح أن الكتاميين كانوا يتكلمون البربرية في الأصل. وقد سبق لنا القول أن معقل الداعي في منحدرات بابور الكلسية كان يحمل اسم اكدجان هذا

المكان. ثم إن وادي قسنطينة الذي نسميه الرمل واسمه الكامل وادي الرمل كان يدعى بالبربرية سوف جمار أي وادي الرمل أيضا. ومن الصعب أن نغفل الصلة بين الدور التاريخي الذي لعبه الكتاميون وبين حلول لعربية محل البربرية. وتختلف اللهجة العربية في بلاد القبائل الصغرى عن سائر اللهجات العربية الأخرى في بلاد المغرب لأنها جاءت بحلاف هذه الأخيرة في القرنيين العاشر والحادي عشر.

وهكذا تبقى آثار الفاطميين في حدودها الجغرافية الدقيقة. فقد ظلت هذه الحدود بين بلدان القبائل الأخرى أكثرها تأخرا وأشدها استعرابا. وليست هذه النتائج متناقضة على كل حال، إذ لا يلزمنا خيال واسع لإدراك تفاصيل القضية.

لنفكر بالحظ العريض أي أصاب هذه القبيلة الضئيلة العدد. فأكثر أبنائها تواضعا استطاع أن ينال نصيبه بعد أن عمل في المجال العسكري أو الإداري في المدن الإفريقية الكبرى وحتى في مدن الشرق البعيدة. ولهذا رأوا لزاما عليهم أن يدرسوا اللغة العربية من اجل تحمل مسؤولياتهم الجديدة، وكانوا في نفس الوقت ناجحين في الحياة يخجلون من لغتهم فتخلوا عنها وكأنها عيب. وبعد أن عاد منهم إلى بلاد القبائل لم يستطيعوا التعرف على أنفسهم. لقد جلبوا إلى هذه البلاد تعفن المدن الكبيرة وتزعزع الروح التي هزها الانتقال المفاجئ. تلك هي أشياء بسيطة لا تتمشى مع التقاليد القديمة والاعتقادات الراسخة، والرضوخ العفوي للأمر الواقع، وكلها ظروف مؤاتية لازدهار المناطق الريفية البسيطة.



# 6- مملكة قبائل صنهاجة

## قبيلة صنهاجة

من الواضح أن عبيد الله المهدي "الإمام الغائب الرابع" كان شرقيا كداعية أبي عبيد الله "الشيعي". والشرقيون هم روح هذه الحركة المغامرة التي عرفها المغرب وليس بنو كتامة سوى أدوات لها. وكان اهتمام عبيد الله منصبا على سورية وبلاد ما بين النهرين وشبه جزيرة العرب ومصر ولم يفكر في أي شيء آخر. وفي هذه البلدان ظل قلب دعاته أيضا.

يقول ابن خلدون أن البيعة تمت في مكة بين لداعي أبي عبد الله وبين أشخاص من بني كتامة.

فقد دخل المهدي القيروان بعد مغادرته السجن سنة 909. وفي عام 911 قضى على داعيته أبي عبد الله. وفي عام 913 أرسل حملته الأولى إلى مصر برا وبحرا. واحتل أسطول مؤلف من مئتي سفينة مدينة الإسكندرية، وبلغ الجيش البري بقيادة أبي القاسم ابن المهدي، الفيوم. ولم يفكر المهدي ببناء المهدية قبل سنة 916، وكان أسفا على عدم تمكنه من قطع صلاته بالمغرب نهائيا. ثم إن اختيار عاصمة ساحلية من شأنه أن يعزز مشاريع الفتوحات الشرقية.

على أن الأسرة الفاطمية كانت -كاسرة حاكمة- مصرية. ولم يكن باستطاعة قبيلة صغيرة من المغرب تجهل العربية تقريبا أن تقدم أكثر من السيوف. على أن عظمة بني كتامة هؤلاء كانت كالشباب، لمعت ثم انطفأت بسرعة.

ولم يتحقق حلم المهدي بفتح مصر قبل يوليو 969 في اليوم الذي دخلت فيه القوات الفاطمية (أي الكتامية) مدينة القاهرة القديمة. وسقطت دمشق عام 970. بعدها مباشرة قصد المعز حفيد عبيد الله إلى مصر مع أقاربه وأعوانه بعد أن قرر مغادرة القيروان. وتم الاستيلاء النهائي على القاهرة الجديدة في 10 يونيه 973.

وأصبح المغرب بالنسبة للفاطميين مرة أخرى بلاد بعيدة بربرية. إذ كانت هذه البلاد منطلقا ليس إلا، وهكذا لم تدم سلطة الكتاميين أكثر من خمسين سنة.

لكن العمل الذي دشنوه استمر من بعدهم. فقد وضعوا راية المغرب أن صح القول، أو حظ المغرب في السيطرة على زمام أمره وتوجيه مصيره، وضعوها في يد القبائل الجزائرية، وقد حافظ هؤلاء طويلا على هذا المصير.

وخلفت كتامة على الفور قبيلة أخرى مجاورة وقريبة هي قبيلة صنهاجة. ولم ينته احد إلى أن الصنهاجيين من القبائل، لان أحدا كذلك لم يشر لأصل الكتاميين القبلي. على أن القضية معقدة جدا بالنسبة لصنهاجة.

فصنهاجة أو الزناغة (فالتسمية هي نفسها) قبيلة كبيرة مشهورة جدا وأبناؤها موزعين في مختلف أنحاء المغرب فقبائل البربرية المراكشية تنتمي إلى زناغة كما يقول ابن خلدون. لكن زناغة الصحراء هي قبيلة المهمة فقد ورد ذكرها في كتاب بطليموس وهي التي أعطت اسمها لبلاد السنغال. فالصنهاجة الملثمون هم الذين كانوا وراء المرابطين في بناء مراكش وغزو اسبانيا وإقامة الإمبراطورية. ويبدو أن صنهاجيي بلاد القبائل يعون الصلة التي توحد بينهم حق الوعي. وقد أورد ابن خلدون أن أميرة من المرابطين قد رجت احد صنهاجيي القبائل طالبة إليه المساعدة باسم القرابة بين موطني صنهاجة.

وقد لقي رجاؤها استجابة في نفس المنتصر. على أن كل ذلك وقائع تزيد في تشوش الصورة لأول وهلة.

لكن من السذاجة تجزئة القبائل البربرية في المغرب. فبنوا أوربة الأورابيون الذين ساروا وراء كسيلة هم أنفسهم الذين التفوا حول إدريس في فلبيلس.

وفي بلاد القبائل نفسها هناك قبيلة تدعى غشتولة، يعتبرها بعضهم نفس "الجتولا" الذين يعتبرون من الصحراويين. إن هذه التجزئة بين القبائل دون ذكر موطنها الجغرافي هي التي تجعل تاريخ المغرب صعبا علينا نحن الغربيين.

ومن واجبينا إن شئنا تفهم الأمور أن ننظر للحدود الجغرافية مغفلين تشابك الأنساب التي أوردها المؤرخون العرب. هذا رغم تخوفنا من الوقوع في الخطأ.

لم يذكر المؤرخون العرب الكتاميين مرة إلا وذكروا الصنهاجيين إلى جانبهم، معتبرين أنهم يرجعون لأصل واحد فهم جميعا من الحميريين. ولو صح شيء من هذه الأسطورة، لكان من الواجب ربطه بذكرى الاحتكاك الطويل مع افريقية البونية، وافريقية الرومانية الملحقة بالعناصر البونية.





ويطلق ابن خلدون على صنهاجة بلاد القبائل، لقب صنهاجة العرق الأول، أي اعرق الصنهاجيين. لكنه يحدد المكان الذي عاشوا فيه بين مسيلة والجزائر مرورا بتتري وميديا. وهي المنطقة التي كان يسلك فيها الناس طريقهم بين موريتانيا سطيف وموريتانيا القيصرية، طريق تقوم على جانبيها الجاليات كما أن خاضعة لتأثير الحضارات القديمة. وهناك تقع اوزيا (أومال) ورابيدي ولمبديا (ميديا) الخ...وتكثر فيها الآثار الرومانية النادرة عادة في منطقة القبائل.

في تلك الحدود اندثر اسم صنهاجة، كما اندثرت اللغة البربرية ولم يبق سوى فئة بربرية قليلة تقيم بين بليدا وميديا. وهذا شيء طبيعي بالنسبة للبربر الذين لا يحافظون طويلا على شرف تأسيسهم الممالك. على أن ابن خلدون يعدد القبائل الصنهاجية الفرعية ومنها ما هو مرتبط ببقعة من الأرض. فهناك بنو اونغة مثلا، ينطبق عليهم اسم المنخفض الواقع شمالي جبل شقشط والمنصورة ويدعى منخفض اونغة وتشرف عليه "الجرجرة" وهرم للا خديجة المثير. وهناك أيضا بنو مزرانه، ونحن نعلم بأن الجزائر كانت تدعى في السابق جزاير بني مزرانة، حتى أن قبائل جرجرة يدعونها مزرانه حتى اليوم بلغتهم المحلية. واسم "الدية" أعمق دلالة وهي قبيلة صنهاجية، اسمها مرادف لمديديا. وهذا تفصيل بسيط يوضح العلاقة بين صنهاجة وعصر ما قبل الإسلام.

ويورد ابن خلدون في موضع اخر: إن ارض الزواوة تفصل بين موطن كتامة وموطن صنهاجة. ونحن نعلم بأن قبائل جرجرة تسمي نفسها بالزواوة. ويعتبر ابن خلدون أن لزواوة فرع بني كتامة ويسخر من النسابين الذين لا يفرقون بينهم وبين زواغة القبيلة الصحراوية. ويستند ابن خلدون على القرب الجغرافي بين زواوة وكتامة، وإجماعهما على تأييد عبيد الله.

كما يشدد على صلة الموالاة التي تجمع بين زواوة وصنهاجة وكتامة أيضا: "احتل هذا الشعب -تحت حكم الصنهاجيين- مرتبة مميزة سواء في زمن الحرب أو في فترات السلم. ذلك انه ظل مواليا لقبيلة كتامة منذ بداية عهد الدولة الفاطمية. حين أقام الصنهاجيون في باجة على ارض زواوة استطاعوا إخضاع هذه القبيلة، وظلت القبيلة على ولائها لهم إلا في مجال جباية الضرائب. فقد كانوا يتمردون عليها لأنهم مطمئنون لقدرتهم على الفرار إلى جبالهم الآمنة." ودفع الضرائب كما لاحظه ابن خلدون دليل الخضوع.

ويقول المؤرخ العربي إن هؤلاء الصنهاجة من الخضر المستقرين على العكس من أبناء

عمهم المرابطين وهم من البدو. "وكانوا مقيمين في البقعة الفاصلة بين أواسط المغرب وافريقية". في حين أن بني مسوفه ولمتونة "كانوا مقيمين في لخيام وسط الصحراء". ولنلاحظ هذا التعبير: "بين أواسط المغرب افريقية" فأواسط المغرب تعني موريتانيا القيصرية. وافريقية تعني مقاطعة افريقية.

وهكذا نلاحظ أن بلاد صنهاجة تقع على طريق تقطع بلاد الخضر.

ويعطي ابن خلدون عن بني لمتونة المرابطين الحكم لتالي " إن الشعب الذي أسس دولة في كل من اسبانية وافريقية... قد زال من الوجود. فقد استنفد حب السيطرة قواه وانصراف إلى الملذات والغزوات البعيدة حتى أبيد في نهاية. أما أولئك الذين ظلوا في الصحراء. فما من شيء غير في نظام حياتهم. وقد حافظوا على وجودهم حتى اليوم".

وهذا حكم نستطيع إطلاقه على جميع كتلة بلاد القبائل مع تغيير الأسماء. قد اختفت القبائل التي أسست دولة كتامة وصنهاجة من الوجود. لكن الذين يغادرون جبالهم حافظوا على بقائهم فيها ولا يزالون محافظين على أسمائهم القديمة. قد ذكر ابن خلدون بني يني وبني غشتولة وبني فراوسن وبني اراطن من سكان بلاد القبائل. ويذكر المؤرخ العربي أن جبال بني اراطن "موقع يسهل الفرار فيها والذود عنها. وهذا ما أجرى عليه المارشال راندون اختبارا.

جميع هؤلاء اعترفوا بسلطة السلطان الصنهاجي. بمن فيهم بنو اراطن. وقد رد اسمهم مع "القبائل الخاضعة" كما ذكر ابن خلدون الذي عايش القضية حيث كان وزيرا في باجه. في ذلك الوقت كان أسلاف القبائل الحاليين من الحلفاء المخلصين من البداية حتى لنهاية". لقد كانت هناك كتلة من القبائل أصبحت كتامة وصنهاجة لبعدها رائدة لها. هذه حقيقة لا تقبل الشك. كما يسهل لمينافور التسليم بها أن نعرف تاريخ صنهاجة.

لم يسهب المؤرخون العرب بمن فيهم ابن خلدون في ذكر تاريخ هذه القبيلة. سيما وان ابن خلدون عاش بعد نشأة الدولة الفاطمية بأربعة قرون. ولم يعد لمغرب القرن الرابع عشر وحتى لمغرب الثالث عشر صلة بالقرن العاشر والحادي عشر.

وتركز اهتمام المؤرخين حول قضايا عصرهم. على انه كان لصنهاجة مؤرخوهم المعاصرون لهم. ومنهم ابن شداد الذي كان واسع الاطلاع لأنه -كما قيل- ينتمي للعائلة المالكة.





وقد فقدت مؤلفاته كما فقدت مؤلفات غيره ممن عملوا بوحي الأسرة الصنهاجية. لكنها وصلت إلى أيدي المؤرخين الذين جاؤوا بعدهم أمثال ابن خلدون والبيان وابن الأثير والنويري. وقد استقوا منها المعلومات. ولا شك أن ما أتوا به نقلا عنها يعتمد شواهد عاصرت الأحداث.

اسم مؤسس الأسرة زيري بن مناد. وهو اسم عظيم جدا بل لعله أعظم الأسماء في تاريخ البربر في العصر الوسيط.

وطبيعي أننا لن نستطيع العودة إلى أصله. لكننا نعتمد نتيجة أعماله فهو أول بربري أصيل استطاع أن يؤسس مملكة.

ولا شك انه صادف مصاعب عديدة نظرا لانتمائه لأصل متواضع وقد دعاه ابن الأثير بزيري الحميري. وكان بالفعل يحمل هذا الاسم. لكن اسما كهذا يدل على صعوبة نسبته لأصل عربي. قبله كان كسيلة والكاهنة. لكنهما لم يتركا سوى ذكرى المقاومة التي لم تجد نفعا. أما زيري فقد أسس مملكة قوية قامت بأعمال عظيمة. وهي في رأيي أهم الممالك البربرية.

وقد شعر المحدثون بأهميته أو أنهم تأثروا بشخصيته. وترى عنه أسطورة نقلها ابن خلدون باقتضاب. وتروي حول ولادته نبوءات وعجائب كثيرة. وطفولته شبيهة بطفولة هرقل. لكن الأجيال اللاحقة لم تلهج باسمه. فهو اقل شهرة من كسيلة والكاهنة. إذا تغاضينا عن ذكر مسيناسا وجوغرتا. ذاك أن اسمه غاب في خضم تاريخ المغرب المبهم. والمجد له ظروفه الخاصة.

يبدو زيري وكأنه يد الفاطميين اليمنى أي مساعد الكتاميين الأول. ويقول النويري نقلا عن ابن شداد أن علاقة وطيدة كانت تربط زيري بالخليفة الفاطمي.

وقد لعب دورا مهما في جميع مراحل الفتح الفاطمي في المغرب. ففي حصار المهدية هب زيري لمساعدة المدينة المحاصرة. حيث أمدها بالمؤن وساعد على فك اخطر حصار ضرب حولها. وقد ظهر زيري حين حوصر أبو يزيد صاحب الحمار في قلعة كيانه وجرح أبا يزيد وجرح وحين فكر الحاكم الفاطمي بإرسال جيش إلى فاس كان زيري على رأس الحملة وقدم خدمات جلى. وظل حتى وفاته مخلصا لمن هو مولاهم.

كما حصل أن الحاكم الفاطمي اختار حين فكر بغزو مصر بلكين ابن زيري ليكون نائبا له. "بحث الخليفة بين كبار ضباط الدولة عن رجل مخلص جدير بان يوكل إليه حكم

المغرب. فوقع اختياره على بلكين ابن زيري. لقد دافع هذا القائد -الذي عملت عائلته في خدمة الفاطميين- عن قضية الشيعة وذاد عن دولتهم". وهكذا تمكن بنو زيري من تولي الحكم في المغرب تحت راية الفاطميين. لكن النزاع نشب بينهما فيما بعد، واشتد بازدياد هؤلاء اندماجا بمصر ازدياد أولئك اندماجا بالمغرب. أما في البداية فقد انتقل الحكم بصورة طبيعية من الكتاميين إلى الصنهاجيين، لأنهم جميعا دافعوا عن قضية واحدة، قضية القبائل.

## العواصم –آشير

هناك شك يخيم على موقع اكدجان معقل كتامة الأول، لكن عواصم الصنهاجيين معروفة وهي ثلاثة: آشير وبجايه. واليك معلومات عن كل منها:

أقدم هذه المدن آشير. وكانت تقع شرقي بوغاري. وبالإمكان تحديدها بالضبط على أطلس غيزل الأثري. كما تنبغي الاستعانة بعمل الكابتن "روديه" وبمقال جورج مارسيه. والنتائج التي يخلصون إليها واضحة. فبقايا آشير موجودة في الجبل الأخضر. وكان يدعى تتري في عهد ابن خلدون.

لكن هذا الاسم لم يعد يدل على نقطة بالذات وإنما يشتمل على ولاية تتري في عهد الأتراك وعاصمتها ميديا. والأخضر أعلى نقطة في سلسلة الجبال تلك، إذ يزيد ارتفاعها على 1400 متر وتتخللها المنحدرات الصخرية والسفوح الحادة. وتعتبر موقعا جغرافيا ممتازا على حد قول الكابتن روديه. وهناك ثلاث مناطق أثرية بين بانيه وعين بوسيف على خريطة قياسها 200,000/1. وابعد هذه المناطق إلى الغرب منزه بنت السلطان وتقع بجوار عين بوسيف ولم تكن سوى قلعة قريبة منها. أما الموقعان الأثريان الآخران اشير وبانيه فيبدو أن كمدينتين منفصلتين لكن إحياءهما متصلة بعضها ببعض. ولعل بانيه أهم هذه التجمعات البشرية وأحدثها. إذ يسهل التعرف على آثار المسجد فيها.

وإذا كنا لا نعرف المزيد عنها فمرد ذلك للإهمال. ومن غرائب المفارقات أن تذهب عاصمة بني زيري ضحية النسيان كما جرى لهم أنفسهم.

فزيري هو الذي بنى آشير. وإليك ما أورده في ذلك النويري عن شداد :"بعد أن اختبر زيري المكان قال لأصحابه، هذا الموقع هو المناسب للإقامة. وقرر أن يبني فيه مدينة آشير". (كان ذلك سنة 324 للهجرة الموافق لسنة 935 من التاريخ المسيحي). ويذكر ابن شداد: "أن المكان لم يكن مأهولا في ذلك الوقت. واستقدم زيري من المسيلة وحمزة وهدنة عددا





كبيرا من النجارين والبنائين وطلب إلى الخليفة أن يرسل إليها مهندسا لا نظير له في افريقية. وبدأ المهندس العمل وفرغ من بناء المدينة". لم يبق عليه بعد ذلك إلا أن يجد لها سكانا. "وقصد زيري إلى تبنة والمسيلة وحمزة لينقل منها أهم مواطنيها إلى اشير. وهكذا تمكن من توطين الناس في عاصمته الجديدة بعد أن جعل منها قلعة حصينة... وسرعان ما اكتسبت أهمية كبرى حين أصبحت مركزا لتجمع الفقهاء ولعلماء والتجار".

ليست هذه الصورة الساذجة بعيدة عن الحقيقة فكثيرا ما كان الأمير ينشئ مدينته من العدم حيث يأمر ببناء بيوتها ثم يملأها بالسكان، ويحرص على استقدام الحضريين إليها من المدن الأخرى. ويعرف ابن خلدون أن بناء المدن إنما هو نتيجة لقيام الأسرة بحيث أن الأولى تزول بزوال الثانية.

ولكن لا يذهبن بنا الظن إلى أن آشير لم تراع فيها أي من المقتضيات الجغرافية. إذ كانت تقع في آخر نقطة جنوبية غربية من كتلة القبائل، فهي نهاية الطريق التي تبدأ من الساحل وهذا من أهم المميزات الجغرافية. ويوجد اليوم خط حديدي يصل الجزائر بميديا وبوغاري في نفس المنطقة. ويشير المؤرخون بإيجاز إلى أن زيري قد سار لوضع يده "على تلك الطريق المهمة". ويضيف ابن خلدون :"بعد ذلك بوقت قصير سمح زيري لابنه بلكين ببناء ثلاث مدن، إحداها على شاطئ البحر وتدعى جزاير بني مزرانة (الجزائر) والثانية على الضفة الشرقية لنهر شلف وتدعى مليانة، والثالثة تدعى لمديا باسم القبيلة الصنهاجية (وهي ميديا). وقد نال بلكين من أبيه حق إدارة هذه المدن الثلاث التي تعد اكبر مدن وسط المغرب". ولا شك أنها ملحقات لمدينة آشير. على العكس مما حدث بعد ذلك في عهد الأتراك حين أصبحت ولاية تتري ملحقة بولاية الجزائر. على أن هذا الخط لم يعرف مدينتين اثنتين اشير والجزائر فقط وإنما ثلاث مدن. والثالثة أقدمها وكانت تدعى "القيصرية" وفيها من ناحية الجزائر قبر ملكي عظيم هو "قبر المسيحية"، وليس من قبيل الصدف أن تتوالى المدن على هذا النحو في منطقة واحدة.

ذلك أنها تقوم على خط مهم يقطع التل إلى قسمين متنوعين بكل معنى الكلمة. فمن الغرب تل السهول شبه الساحلية التي تتوالى حتى وهران، ثم السهول الوعرة. ومن الشرق سلسلة الجبال المتراصة الغنية في الاحراج ببلاد القبائل. ولا يسعني إلا أن اذكر بما قلته سابقا. فالمكان مناسب جدا ليكون موقعا لعاصمة الجزائر.

وليس بناء كآشير من الأمور الاعتباطية المصطنعة، لان الأمير الذي بناها كان يعرف ما يريد وقد اختار المكان المناسب. ولو أن التاريخ اتجه في مسار آخر لكانت آشير اليوم عاصمة المغرب. ولأخذت مكان الجزائر.

## قلعة بني حماد

تعتبر قلعة بني حماد عاصمة ثانية ابني زيري. فحماد هو ابن بلكين وحفيد زيري، لكنه كان الولد الثاني وليس البكر. ومنه تفرعت أهم بطون بني حماد. قال ابن خلدون:

"سنة 398 للهجرة (1007 مسيحية) بنى بني حماد مدينة القلعة" ويروي لنا طريقة بنائها على نفس الصورة الآنفة الذكر. "نقل إلى القلعة سكان مسيلة وحمزة بعد أن دمر المدينتين. وفي حوالي نهاية القرن الرابع للهجرة (أي بعد سنتين أو ثلاث سنوات) فرغ من بناء المدينة وجلب السكان إليها كما أحاطها بالأسوار بعد أن بنى فيها عدة مساجد ومحطات للقوافل فضلا عن مباني عامة أخرى".

المشهد يتكرر دائما، الأمير يبني مدينته كما يبني الغني دارته.

وقد رافقت القلعة مصير بني حماد من أوله لآخره، واحتلت مكانة مرموقة لم تكن آشير نفسها لتحتلها. وقد لفتت أثارها انتباه المؤرخين ووضع الجنرال بيلييه عنها صورة بيانية.

ولم تكن ثمة صعوبة في تحديد مكانها الذي تشير مئذنة المسجد ومنار القصر. كما عثر بيلييه على ذكريات المدينة عند سكان الأصليين.

قامت مدينة القلعة على أنقاض قلعة قديمة بنيت فوق لصخور ولها تاريخ حافل مذ هاجمها أبو يزيد صاحب الحمار وردته بعد حصار مرير. انه موقع حصين كان يدعى منحدر كيانا في ذلك الوقت ويسمى اليوم جبل مديد. ويمكن العثور على المكان الضبط في خريطة غيزل. والمديد امتداد للأخضر الذي بنيت عليه آشير. وكلاهما يشكلان آخر المنحدرات الصخرية لمنطقة التل بمحاذاة الهضاب العليا أو "شرفات الجنوب" كما كان فرومنتان يسمى بوغاري.

والقلعة على غرار آشير تقع عند الطرف الجنوبي لطريق طبيعية تقطع التل من البحر حتى المرتفعات. وعلى هذه الطريق وبمحاذاتها يقع وادي قصب وسهل مجنة ومر بيبان ووادي الصمام، وتقع بجاية عند طرفها الآخر. وهنا اكتفى بذكر ما تكلمت عنه بإسهاب في ما سبق.

وقد عثر بيلييه من السكان الأصليين على بعض المعلومات التي تفيد عن صلة القلعة في أواخر أيامها ببني مقرانة وكانوا أصحاب مجنة يحمون مر بيبان من قلعة بني عباس. وهؤلاء سلاطين صغار من القبائل يذكرها مؤرخو القرون الوسطى باسم





سلاطين العباس. وقد ظلوا حتى ثورة 1871 بمثابة آخر بقايا الأسرة الارستقراطية وسط بلاد القبائل الديمقراطية، وهم على صلة بطريق القلعة-بجاية.

وأهمية هذه الطريق مذكورة في تاريخ أسرة بني حماد. ففي سنة 1067 أي بعد ثلاثة أرباع القرن على قيام القلعة، نقل السلطان الحمادي الحاكم (الناصر) عاصمته من القلعة إلى بجاية. إذ أصبح موقع القلعة متقدما جدا، فانكفأ الحماديون باتجاه معقلهم ببلاد القبائل. وهكذا ظهرت بعد آشير والقلعة آخر عاصمة لدولة الصنهاجيين، ألا وهي بجاية.

## بجاية

إنها مدينة عريقة في قدمها ولعلها تعود لعصر البونيين. وكانت مستعمرة رومانية باسم سلدا. ولم تزل هذه المدينة من الوجود أبدا، لكن عظمتها كانت في فور وغور. وقد تحولت عدة مرات لقرية صغيرة لا حول لها ولا طول. وكانت على هذه الحال حين وقع اختيار الناصر، وسلطان بني حماد، عليها.

ويتحدث ابن خلدون عن تأسيس بجاية كما لو أن ليس لها أي تاريخ فيقول: "سنة 460 (167 ميلادية) استولى الناصر على جبل بجاية وهو موقع تسكنه قبيلة بربرية بنفس الاسم.. وكانت من الصنهاجيين. وحين اخذ الناصر المكان أقام فيه مدينة تدعى الناصرية. لكن الجميع يطلقون عليها اسم بجاية على اسم القبيلة." مرة أخرى تتكرر عملية بناء المدن. فلم يأت ابن خلدون على ذكر سلدا لان مدينة الحماديين قد اكتسبت مجدا عظيما من شأنه أن يمحو تواضع القديم.

ولا يفيدنا الأثريون عنها الكثير ويخصص لها بيليه بعض الصفحات في نهاية كتابه عن القلعة، ويفهم منها أن بجاية على عكس القلعة قد حافظت على وجودها. فالحياة هي التي تسبب الهدم. فهذا القصر الحمادي أو ذاك إذا بقي منه شيء فلا بد وان يكون مطمورا. لكن بيليه استطاع أن يعيد أسوار مدينة الحماديين إلى الأذهان. والمدينة التي تقع داخلها يزيد حجمها على ثلاثة أضعاف بجاية الجديدة أو سلدا الرومانية. ويقول ليون الإفريقي الذي عرف بجاية زمن تقهقرها أنها كانت تحتوي على 24 ألف موقد أي 100 ألف نسمة.

وصحيح أن بيليه يرى في هذا الرقم مبالغة. لكن أقوال المؤرخين لا تنضب عن عظمة القصور الحمادية في بجاية وعن "قصر الجوهر" بنوع خاص. ولدينا وصف مسهب لهذا

القصر وكذلك رسم ملون له. ومن المرجح أن هاتين الوثيقتين محرفتان. وفي عهد الإدريسي العالم الجغرافي كانت بجاية مركزا صناعيا وتجاريا وثقافيا هاما، وكانت أعظم مدينة في البلاد التي نسميها اليوم الجزائر. ولا شك أن بجاية كانت في أوج عظمتها في عهد الحماديين. وجدير بالذكر هنا أن بجاية الاسبانية قد حاصرتها القبائل طيلة 36 سنة. ولم يكن حظ بجاية التركية أفضل. ويروي بيليه "أن فارس ارفيو الذي زار بجاية سنة 1674 يقول إن المدينة لم تعد في ذلك الوقت سوى قرية بائسة يقطنها نحو 500 أو 600 شخص بالإضافة إلى 150 جنديا أرسلتهم الجزائر. ولم يكن هؤلاء الجنود ليتجرأوا على مغادرة المدينة مخافة أن يقضي عليهم البربر".

وفي سنة 1830 كان فيها 2000 نسمة و60 جنديا تركيا "وكان السكان يتعرضون للسلب والنهب بشكل مريع على يد لقبائل." فالأمر مختلف جدا عن بجاية الحماديين التي لم تتعرض لأية متاعب من جانب القبائل المحيطة بها. فما كانت هذه لتعتبرها مدينة أجنبية وإنما عاصمة لها.

وعن القلعة وبجاية بعض المعلومات البسيطة التي تمت بصلة للقبائل. يقول ماس لا ترى :"حتى سنة 1114 كان للمسيحيين الأفارقة والبربر كنيسة في القلعة هي كنيسة السيدة العذراء. وكان كاهنهم يعيش في بيت مجاور للكنيسة. وهو آخر كاهن من أهل البلاد وصل إلينا ذكره".

وفي موضع آخر يعطي ماس لاتري بعض التفصيلات الأخرى فيقول: "استقبل الأمراء الحماديون في فترة مقاربة للفترة التي بنيت فيها القلعة استقبلوا جالية كبيرة من المسيحيين البربر من بين القبائل التي أمت عاصمتهم، وظل هؤلاء المسيحيون مقيمين فيها لوقت طويل. إذ أن جو التفاهم الذي ساد العلاقات بين كرسي البابوية والأمراء الحماديين قد ضمن سلامة هؤلاء الرعايا".

وكان لهذا الصلات الطيبة مع الغرب أثرها على الصعيد لتجاري. وقد أصبح لبجاية مكان خاص في قاموس براشيه الفرنسي، يقول القاموس:

"Bougie كلمة ذات أصل تاريخي، يشير إلى مدينة بجاية حيث كانت تصنع هذه السلعة." وكان أجدادنا يستهلكون ما يسمى بزيت الكوك المستورد من بجاية. انه زيت الزيتون المصنوع ببلاد القبائل التي ظلت كوكجو عاصمة لها لوقت طويل. وقد سبق لنا القول إن المغرب في العهد الروماني كان يصدر زيت الزيتون إلى العالم اللاتيني. وظل اثر هذا العرف التجاري ماثلا لدى قبائل بجاية حتى وقت قريب. فلم تكن صلات





المودة والتجارة مستغربة بين جبال القبائل وملوكها من جهة وبين العالم اللاتيني من جهة أخرى. وليس مستغربا أيضا استمرار المسيحية فيها وبقاء العادات التي عرفت في العصور القديمة.

## التأثيرات الشرقية

لابد لنا -رغم الطابع القبلي الذي يميز الصنهاجيين- أن نتنبه للتأثيرات الشرقية العميقة في نفوسهم.

فقد دلت عمليات التنقيب التي أجراها بيليه على أن هندسة البناء كانت شرقية. "فواجهة المنار ودار البحر وهما من قصور مدينة القلعة ذات طابع مميز في بلاد ما بين النهرين. ومن الواضح أيضا اثر الزخرفة الأسيوية والفارسية في الأواني التي استعملوها".

وواضح كذلك أن كلا من آشير والقلعة وبجاية كانت تتكلم العربية كما كانت متأثرة بالحضارة الإسلامية. ويتحدث بيليه عن مجمع أدباء بجاية القادمين من الشرق واسبانية وكانت لهم مدرسة في عاصمة بني حماد. "وفي بجاية أيضا عدد لا يستهاد به من الأولياء، ولهذا سميت في السابق بمكة الصغيرة".

وكل ذلك من الأمور الطبيعية. إذ كيف لا تتأثر مدينة تقع في الشمال الإفريقي بالحضارة العربية واللغة العربية في القرن الحادي عشر؟

ولنوضح كذلك أمرا آخر، فقد اشرنا إلى أن آشير والقلعة وبجاية كانت عواصم الصنهاجيين. والواقع أن عاصمتهم الرسمية هي القيروان.

فالقيروان كانت عاصمة بني كتامة الفاطميين حتى الوقت الذي انتقل فيه هؤلاء إلى القاهرة. وتربع أمراء الصنهاجة بعدهم على عرش القيروان. ولم يقم بنو زيري في أي مكان آخر. وقد أمضى بلكين وخلفاؤه فترات حكمهم في القيروان. وإليك ما أورده ابن خلدون حول تنصيب بلكين: "في تلك المناسبة غير الخليفة اسم بلكين وجعله يوسف وأعطاه لقب أبي الفتوح وسيف الدولة وقدم له ثوب الولاة". كانت النية واضحة في محو أصله القبلي، لكن ذلك لم يتحقق لان لمنصور ابن بلكين ظل في آشير حتى يوم وفاة أبيه.

وتوالي على حكم القيروان كل من المنصور (984-995) وابنه باديس (995-1016) وكذلك المعز ابن باديس وخليفته (1016-1062). وفي أيام حكم هذا الأخير أي سنة 1058

هاجم العرب المدينة ودمروها. وارتكب المنصور وقتئذ غلطة فادحة حين ولى عمه حماد على آشير ورأينا ما حل بها بعد ذلك.

والواقع أن مملكة الصنهاجيين كانت وجهين. فقد كانت هناك دولتان ألقى السلطان بينهما بثقله الشخصي. وافريقية إحدى هاتين المملكتين وقد انتقلت عاصمتها من قرطاجة إلى القيروان قبل تونس. وهي نموذج للمدينة الحضرية التي يحتقرها ابن خلدون لأنها، شأن بلاد ما بين النهرين وسورية ومصر، مطبوعة على الطاعة وحب الاستقرار والترف بحيث يسهل الاستيلاء عليها. وهكذا أقام بنو زيري في القيروان.

ولهذا السبب انتصر الحماديون سكان بلاد القبائل عليها، وانتهى أمرها نهائيا سنة 1057 وقامت مكانها آشير والقلعة وبجاية.

على أن سلاطين القيروان من بني صنهاجة لهم مطامع في جميع أقطار المغرب. فقد شاؤوا الاستيلاء عليها برمتها وقد بلغت جيوشهم مراكش. لكن وسائل النصر لم تكن بحوزتهم إذ كان يلزمهم أكثر من الجندي القبلي. وقد رأينا أن المنصور الزيري لجأ لجنود من الزنج. وبعد أن قمع ثورة أبي الفهم، أمر المنصور بقتل زعيم الثورة "وشقت بطنه واستخرج منها كبده وافترس الجنود السود جثته حتى العظم". وقد استعان العديد من السلاطين بهؤلاء السود أكلة اللحوم البشرية.

وليس من الصعب العثور على مواضع الشبه بين صنهاجة وسائر ملوك المغرب، لهذا لم يعن المؤرخون العرب كبير عناء بأصلهم القبلي. يضاف إلى ذلك أن وضاعة أصل القبائل حولت الانتباه عن وجود أمراء لديهم. والواقع انه لو أعلمنا الذاكرة لوجدنا لهم أمراء. ويروي مرسييه عن بداية فتح الأتراك للجزائر زمن بربروسه، وعن الصراع الذي وقع آنئذ ضد الأميرين القبليين، ملك الكوكو (بلاد الزيت) وملك بني عباس.

كما يميل جمهور القبائل للانضواء تحت إمرة قائد واحد وذلك لضرورات الأمن. ولعل هذا ما بقي من عهد صنهاجة، وأخيرا لنلق نظرة على الخريطة ولنحدد موقع اكدجان والقلعة وآشير وبجاية عليها. لنرى أن هذه الأسماء تحدد تاريخ الكتاميين والصنهاجيين. فالمدن الثلاث الأولى تعتبر بمثابة حدود لها أما الأخيرة فهي منها في مكان القلب. ولو أخذنا الخريطة بعين الاعتبار - وهذا ما لم يلتفت إليه المؤرخون العرب قط -لصعب علينا الظن بان الكتاميين والصنهاجيين ليسوا من القبائل.

وإذا سلمنا بما شاهدناه على الخريطة هان الأمر واتضح وأصبح بمقدورنا أن نلم بالخطوط العامة لما صنعوه وما حاولوا أن يصنعوه.



# 7- رد فعل الخوارج وصاحب الحمار

## السنوات الأولى لحكم الفاطميين

لم يكن انتصار القبائل والبرانس ليقع دون أن يحدث ردود فعل عنيفة لدى البتر الزناتيين الخوارج. وقد سبق لنا ذكر حصار المهدية على يد صاحب الحمار. وخليق بنا أن نعود لهذه الحادثة نتقصى الحقائق من ورائها.

في تلك الفترة ظهر على مسرح المغرب بعد النوميديين وزناتة عنصر ثالث هو فلاح الجبل الحضري الذي يطلق عليه اسم رجل القبائل ويعتبره المؤرخون العرب من البرانس كما كان الرومان يسمون أبناء قومه "بالموز". لقد كان هذا الفلاح موجودا منذ القدم غير أن دوره كان ثانويا للغاية. ثم هب فجأة ليقوم بدور طليعي مع الكتاميين والصنهاجيين.

وحركات المغرب كما نعلم لها بطانة دينية معظم الأحيان. وقد نشأت الحركة الجديدة بانضمامها للفاطميين المنشقين مذهبيا. أنهم رجال القبائل الذين لم يتفقوا يوما مع البدو الرحل. لكن خلاف الطرفين لم يتفجر طيلة السنوات الأولى لخلافة الفاطميين.

ومن البديهي أن الخليفة الفاطمي لم يكن ليعي عظم الثورة المغربية التي اندلعت باسمه. ولم يكن ليدرك وهو العربي انه سلم المغرب لرجال القبائل. ذلك أن الأبعاد الحقيقية للأحداث لا تظهر في نفس الفترة التي تقع فيها. ولم يستطع هذا الخليفه الشرقي أن يتفهم واقع المغرب بعمق. والدليل على ذلك واضح.

فالمهدي بعد مغادرته سجن سجلماسة وتتويجة من ثم، ورث تركة الأغالبة كلها بما فيها من تنظيم وإدارة ومالية وأسطول بحري. لكنه لم يكن يحس بإحساس سلطان إفريقي.

كان الخليفة والسيد المطاع، وقد امتدت مطامحه لتبلغ العالم الإسلامي بأسره، وجميع المغرب بالطبع. وقد حدا به شعوره هذا على الفور للتخلص من الممالك المستقلة التي أنشأها ظهور الخوارج في المغرب. ومنذ السنوات الأولى لحكمه قضى على حكم

الإباضية في تاهرت. كما قضى على مملكة سجلماسة الصفرية الصغيرة وكذلك على مملكة الأدارسة في فاس. وصدع بذلك التوازن الذي عرفه المغرب منذ قرن.

وكانت حروب مراكشية قاسية. ولدينا تفاصيل وافية عن سلسلة الحملات التي شنها الفاطميون على فاس بين 910 و934. ولسنا الآن بصدد سردها وإنما يحسن بنا أن نتطلع لنتائجها.

لقد اختفى الأدارسة وحل محل محلهم أمويو بلاد الأندلس. كما زالت سلطنة فاس، لكن السلطة الفاطمية لم تحل محلها. ورضيت قبائل زناتة التي التفت حول فاس في عهد الأدارسة (أي زناتة تلمسان) رضيت هذه القبائل بحكم قرطبة البعيدة. وهكذا لعب الحكم الفاطمي دور زعرعة التوازن فقط. وعلينا أن نتحدث من ناحية أخرى عن شخصية القادة الفاطميين ومواليهم في الفترة الأولى. فجيشهم كان كتاميا، لكن قواده لم يكونوا كذلك. ولم يظهر رجال القبائل بين قادة الأركان. وقد لعب احد زعماء مكناسة سكان مولوية دورا مهما واسمه مسالة ابن حبوس. وهو الذي اخضع تاهرت وسجلماسة لسلطة الحاكم الفاطمي. كما قاد أول حملة على فاس.

ثم إن المهدي قضى في السابق ردهة طويلة من الوقت في سجلماسة لاجئا وسجينا. وسجلماسة تابعة إلى بني مكناسة نوعا ما. وعلينا أن ننظر للصلات الشخصية بين لمهدي ومسيلة وهي صلات ترجع لزمن الاعتقال.

ومات مسألة بعد وقت قصير على يد بني مغراوة. والمعروف أن مكناسة ومغراوة قبيلتان زناتيتان، لكن بني مغراوة لم ينظروا بعين الرضى لمكانة أمير مكناسة لدى الحاكم الفاطمي.

ويذكر ابن خلدون: "أن ابن شقيق مسلة وخليفته تخلى عن تأييد الفاطميين ونادى بالأمويين أصحاب الأندلس أسيادا على افريقية."

وهناك شخصية ثالثة مهمة في إدارة الفاطميين هو علي بن حمدون الأندلسي. وقد تعرف على المهدي في الشرق ورافقه وأيام حظه العاثر. ولما انتصر المهدي جعل له مكانة رفيعة في البلاط. وأصبح حاكما لمسيلة والزاب. وظل طيلة حياته مواليا للمهدي، لكن ابنه وخليفته شعر بالحسد تجاه زيري الصنهاجي فجمع رجالا من زناتة حوله، وحرضهم على رفض سلطة الفاطميين والاعتراف بسلطة الخليفة الأموي في الأندلس.

ولعل من الأصح القول إن رجال زناتة هم الذين حرضوا قائدهم على هذا الأمر.





ووقعت الحملة الثانية على فاس وقادها ابن المهدي وخليفته المرتقب وكانت بمساندة بني مكناسة. وبعد تخلي مكناسة وقعت حملة رابعة بقيادة أمير مغراوي ينتمي لعائلة خازر الشهيرة.

ولم يجد الحاكم الفاطمي نفسه مقيدا برجال القبائل بالطبع. فإذا لم يختر قادة جيشه من عائلته أو مواليه اختارهم من قبيلة زناتة. لأنه سعى لحل مشكلة بلاد زناتة عن طريق زناتة نفسها. وتصور انه سلطة الخليفة المباشرة على المغرب، لكن هذا كان خلاف الحقيقة تاما.

ذلك أن الانتفاضة ضد الفاطميين ظلت نارا تحت الرماد من 909 حتى 930، سواء عند بني مكناسة أو في الزاب، أو لدى البدو الخوارج. ومما لا شك فيه أن تسلم الفاطميين السلطة قد غير الظروف السياسية حتى قلب مراكش. وبعد قرن من السلام تصدع التوازن واهتزت أركان المغرب ! واستيقظت فجأة لدى البدو، شهوة القتال والسلب والطمع التي نامت قرنا كاملا. فلم لا تستيقظ هذه الشهوة ولفرصة مؤاتية لها؟

وظل ولاء الإباضية على حاله. بينما استعاد متطرفو الخوارج قوتهم على يد صاحب الحمار.

وظهرت أوائل الانتفاضات سنة 929. وبلغت أشدها بعد موت المهدي عام 934. وخضت حكم ولده القائم الذي مات في خضم الأزمة سنة 946. ولم تنته الثورة نهائيا إلا بموت صاحب الحمار سنة 947. لقد كانت فترة رهيبة من الصراع بين اسر القبائل والزناتيين.

## أبو يزيد صاحب الحمار.

كان أبو يزيد ينتمي لزناتة بالطبع. ويلقبه ابن خلدون باليفرني، لكن مركز نشاطه لم يكن قط ناحية تلمسان. "فقد ولد في السودان وكان أبوه يقصدها لتعاطي التجارة" وقد ولد أبوه في كستيليا (الجريد التونسي)... "وأمضى أبو يزيد طفولته في تزور بالجريد نفسه." لقد كان صحراويا من جنوبي تونس.

وذات يوم قصد إلى تاهرت "حيث أسس كتابا لتعليم الأولاد". فهو إذن من رعايا الرستميين لكنه ينتمي للفئة المنشقة. ويقول ابن خلدون "انه ينتمي للنكارية المذهب الخارجي الذي يومي إليه كذلك باسم الصفرية". ويسهب أبو زكريا في الحديث عن النكار ويميل لجعلهم مختلفين مذهبيا عن سائر الصفرية: فهم ينتمون لأقصى التطرف.

يقول ابن خلدون: "كان يركب حمارا اغبر" ويشدد أبو زكريا على مواصفات الحمار: "انه

حمار قاهري، سريع الجري بحيث لا تستطيع الخيل اللحاق به إلا جريا إذا كان متمهلا، وكان يسبق جميع الخيول أن كان راكضا".

وكان ابن خلدون يرى في ركبه الحمار نوعا من الميل لبساطة الحياة وقساوتها. ويضيف أن لباسه عبارة "عن قميص من الصوف أميل إلى القصر له كمان ضيقان" أنها جلابة العمال المغاربة والزابيين، أي لباس الشعب.

ذلك هو الخارجي. ولكن إليك أبا يزيد الصفري: "قال له احد أعوانه: لا تظنن أن الإباضيين سيتبعونك، فهم في مساجدهم. أما نحن فقد خرجنا معك لنلتهم تلك الجثث معا...وكان يعني بالجثث نتائج أعمال السلب". ويوم استيلائه على القيروان وعد أبو يزيد قاضي المدينة بالعفو عنه. فقال له احد أعوانه:

إلا تدري ما يقوله كتاب كليلة ودمنة؟

وأجاب أبو يزيد:

وما يقول هذا الكتاب؟

يقول: لا شيء أحب إلى القلب من قتل عدو حقير.

وحكم على القاضي بالإعدام ونفذ فيه حكم الموت رغم الوعد الذي قطعه له واستولى أبو يزيد على ممتلكاته.

ويضيف أبو زكريا قوله: "ويقال أن عدد القرى لتي خربها يزيد على ثلاثين ألفا...، وقد تجاوزت قسوته وأعمال العنف التي ارتكبها كل ما روي عن فظائع لفراعنة وسائر الحكام المستبدين. وكان يشهد بنفسه أعمال الفوضى والانتقام التي يرتكبها جنوده، ولم يفكر قط بإيقافهم أو منعهم... وذات يوم مر بجوار قابس ووافق أهلها على فدية معينة لمدينتهم لقاء الامتناع عن غزوها، ولكنه ما أن قبض الفدية حتى أمر جنده باقتحام المدينة وإعمال السلب والنهب فيها ثم عاد بعد فقدر ثمن الفدية من جديد ورفعها وكان على السكان أن يدفعوا له الفرق كذلك".

ومرة أخرى في الساحل، ألقى جنوده القبض على فتاتين رائعتي الجمال، وجاءته أمهما شاكية وهي تقول:

أيها الشيخ ! لقد اخذ جنودك ابنتي لاسترقاقهما، وقد اعتدوا عليهما وهما حرتان.

واكتفى أبو يزيد بالقول:





وهل من إنسان حر في افريقية؟ وخافت لامرأة على حياتها وهربت منه ولم يكن "عدو الله" ليمضي ليلة واحدة دون أن تحيط به أربع من العذارى.

ويستفيض أبو زكريا في الحديث عن فظائع أبي يزيد "عدو الله". ولا شك أن الكراهية شديدة بين الإباضي (أبو زكريا) وبين الصفري (أبو يزيد) أما ابن خلدون فأكثر إنصافا ولا شك: وهو يعطي عن أبي يزيد الفكرة نفسها وقد أورد:"اعمل أبو يزيد النار في بجة بعد أن أمر بسلبها: كما أمر بقتل رجالها وأطفالها واسترقاق نسائها".

"وهاجم رقادة وسلبها ثم احرقها...وكذلك سلب القيروان".

"حاصرت فرقة من جيش أبي يزيد مدينة سوسة وأعملت الفرق الباقية الخراب في سائر أنحاء افريقية...وقد وصلت فئة من المنكوبين إلى القيروان حفاة عراة بينما مات الباقي من الجوع والعطش".

وكان أبو يزيد ذا سلوك شائن اشمأز منه حتى المقربون إليه.

وقد انضمت إليه في البداية قبيلتا لواتة وهوارة، وخاصة هوارة بني خمار، ويحدد ابن خلدون مكانهم شمالي الأوراس. ولعل ثورة أبي يزيد كانت بحال بلاء هوارة بنوع خاص. ففي جنوبي الأوراس، وخاصة في شماله وشرقه أحرز نجاحاتها الأولى، واستطاع أن يكون نواة جيشه في توزر وبغاي وتيبسة ومرمجنة.

لكن نجاحه هذا خلق له أعوانا في جميع المناطق الوعرة. وفي نهاية المأساة التي تسبب بها يحدثنا ابن خلدون كيف أن الحاكم الفاطمي قد شهد استسلام مغراوة التي ناصرت أبا يزيد. وبنو مغراوة من شلف ومنطقة تلمسان.

ويقول ابن خلدون "إن جمهرة كبيرة من البربر جاءته من بلاد بني نفوسة والزاب وقلب المغرب". وهم جميعا من البدو الذين هبوا رجلا واحدا، لان الصفرية الداعية إلى السلب والنهب تتجاوب كليا مع هؤلاء البدو الذين يتخيلون ثروات المدن تحت قبضة سيوفهم.

لقد كانت هزة عنيفة في بلاد المغرب كاد حكم الفاطميين يسقط تحت وطأتها. وابرز حوادثها حصار المهدية الذي تحدثنا عنه بإيجاز.

ولم يكن انتصار الفاطميين بفضل إخلاص الكتاميين والصنهاجيين لهم فحسب، وهو إخلاص فريد من نوعه نظرا للعداوة المستحكمة بين القبائل والبدو فالتحاسد بين الرحل شارك في ذلك. وقد ذكر ابن خلدون أن القبائل الرحل الملتفة حول أبي يزيد رفضت

الانصياع لأمره نظرا لما بينها من تحاسد. وقد فقدت من جنودها في حروبها الداخلية ما يفوق خسارتها في الحرب ضد الأعداء".

يضاف إلى ذلك حاسة الدفاع عن النفس الموجودة لدى حضريي افريقية حيث كان عليهم أن يختاروا بين الحياة أو الموت. "لقد بلغت الفظائع التي ارتكبها البربر في المدن،والحملات التي شنوها على افريقية درجة رهيبة، حتى سكان القيروان حملوا السلاح ضدهم وعادوا من جديد إلى سلطة الفاطميين".والوضع مشابه لما كان عليه في معركة القرن أو في عصر الكاهنة. ذاك أن سكان المدينة ساندوا الحكام مساندة قوية للوقوف في وجه الفوضى.

وحين وقع الحمار (سنة 947) في يد الحاكم الفاطمي بعد أن تخلى عنه أتباعه من هوارة "سلخ جلده عن عظمه وحشا جسمه بالقش وقدمه لعبة لقردين تدربا على هذا العمل".

ويضيف أبو زكريا قائلا: "وأشار الأطباء الذين فحصوا جروح أبي يزيد على الحاكم الفاطمي أن يستعجل تدابيره إن هو شاء أن يكون موت الرجل على يديه. وأمر الحاكم الفاطمي بسلخه، لكن عدو الله مات قبل أن يصلوا إلى سرته".

وفي مشهد آخر يحدثنا كيف أن الحاكم أمر بقتل جميع السجناء.

ويقول النويري إن إبراهيم ابن الأغلب حين انتصر على بني نفوسة في طرابلس سنة 894، "تربع على عرشه وأمر بإحضار احد السجناء ومر على جسمه بالسيف ثم طعنه بالرمح في قلبه وبنفس الطريقة قضى على 500 رجل".

ويقول البيان أن إبراهيم ابن الأغلب أمر في نفس الوقت "بقتل خمسة عشر رجلا وقطع رؤوسهم وشويها في النار، وكأنه يريد أكلها مع جنوده، فخاف رجال الجيش وظنوا أن الأمير قد اعتراه مس من الجنون". كل هذه فظائع تنبئ بنهاية العهود. والواقع أن المغرب كان مسرحا لفظائع كهذه لاسيما بين الأعداء اللدودين: البدو والحضر.

وتعتبر ثورة صاحب الحمار آخر حقبة من حقائب التمرد عند الخوارج. وقد انتهت كما بدأت وسط نوع من الجنون. ودخل المغرب في مرحلة جديدة أصبح روادها رجال القبائل. ومع هؤلاء لعب المغرب ورقته الأخيرة في أهم مرحلة من مراحل اللعبة.